إلى القارئ

حول الاسبوع الثقافي التونسي بالمغرب الشقيق

بقلم : البشير بن سلامة

التأم في المغرب الشقيق أسبوع ثقافي تونسي من 14 الى 20 مارس 1983 واحتوى على عدة نشاطات ثقافية (مسرح ـ سينما ـ فنون شعبية ـ معارض للفنون التشكيلية والكتاب) لم تقتصر على مدينة واحدة بل امتدت الى عدة مدن مغربية مثل : الرباط والدار البيضاء وتطوان وسلا ومراكش وشفشاون وغيرها .

وكان هذا السعي الى التعريف بالثقافة التونسية بهذه الصورة الشمولية التي جعلت اخواننا المغاربة يعيشون طيلة أسبوع كامل مظاهر الابداع التونسي ، من صميم الاريحية المغربية ويتنزل في صلب ما عرف به أهل المغرب الشقيق من كرم وحسن شمائل وطيبة معشر واصالة مكينة .

واذا كان النجاح الذي لقيه هذا الاسبوع عظيما في المغرب فان ذلك يرجع الى العناية الكبيرة التي لقيها الوفد التونسي من الحكومة المغربية وخاصة من الدكتور سعيد ابن البشير وزير الشؤون الثقافية بالمغرب الشقيق المعروف بحزمه وجده وكفاءته ودماثة أخلاقه والذي لم يأل جهدا هو وأعضاده لتوفير كل الوسائل الكفيلة بنجاح الاسبوع وجعل المحادثات تفضي الى نتائج ايجابية وعملية .

وإن ما يطيب للمرء أن يسجله بكل اعتزاز أن هذا الجو المنعش الذى حف بالاسبوع الثقافى التونسى من قبل الاشقاء المغاربة لم يكن مرده فقط الى العناية الرسمية بل إن ما لقيناه من أصدقائنا الوزراء ومن رجال الثقافة ومن الادباء أعطى لهذه الزيارة رونقا وبهجة أحس بها كل أعضاء الوفد التونسى . وإن القلم ليهفو الى ذكر هؤلاء الاصدقاء والاخوة الذين لم يفارقونا بالرفقة الطيبة أو السؤال عنا أو تتبع أخبارنا دقيقة دقيقة ولكن نخشى على أنفسنا من ضيق المقام لتعداد أسمائهم كلهم ونقول لهم إننا لن ننسى ولو واحدا منهم وسنظل نذكرهم ذكرا يقوى اللحمة ويذكى العشرة .

ولا يخفى على أحد أهمية هذه الاسابيع الثقافية التى وإن هى اقتصرت على مدة زمنية معينة فانها فرصة لتقريب الثقافتين وشد الاواصر وإذكاء الشعور بوحدة المصير ومراجعة النفس وتلاقح الافكار وتبادل التجارب علما بأن أى ثقافة وأى لون من الثقافة لا يزكو ولا يشتد عوده وتمتد فروعه إلا بتجاوزه حدود نشأته . وهذا يصح بالنسبة الى الثقافة التونسية كما يصح بالنسبة الى الثقافة المغربية وغيرها من الثقافات ولا يقتصر الامر ـ كما عهدنا ذلك عند الدول ـ على العمل على اشعاع ثقافة البلد والسعى بكل الوسائل الى التقليل من شأن ثقافة البلد الآخر بل إن الشأن يدعو الآن الى تضافر الجهود كلها والعمل المشترك من أجل نشر الثقافة المقابلة . ذلك أن فكرة التوسع الثقافى مثل التوسع السياسى والجغرافى يحسبها البعض غنما كبيرا كما ذهب فى خلد بعض القادة العرب فى السابق وثلة من أدعياء الثقافة ولكنها تعود فى آخر الامر بالوبال على ثقافة البلد نفسه فيتقوقع ويأخذه الزهو وينزل مستوى انتاجه بالقدر الذى يرتفع به مستوى ثقافة البلد المقابل . ولا أريد أن أعدد الامثلة فهى كثيرة سواء فى العالم العربى أو غيره .

وإن أفضل ما يعطى من مثال فى هذا الباب هو ما كانت عليه الثقافة العربية الاسلامية فى القديم اذ لم يكن هناك حدود تحد من انتشارها فى بلد عربى دون آخر فكان الكتاب ينتقل بدون حواجز وكانت الخبرات الثقافية والعلمية

من معمار وطب وغيرهما لا تعرف الحدود . وبذلك ازدهرت الثقافة العربية فى العصور المعروفة ونمت فروعها على امتداد القرون .

ومن حسن الحظ أن هذا التمشى كان هو الخيط المسير للمحادثات الثقافية التونسية المغربية وان الدكتور سعيد بن البشير وزير الثقافة المغربى من المؤمنين بهذا التوجه والعاملين من اجله فكان البلاغ المشترك ينم على هذا المنحى الجديد فى السياسة الثقافية بين البلدين وأن كل الطاقات جندت للوصول الى هذه الغاية أى عدم الاقتصار على الاسابيع الثقافية التى لا بد منها ولكن تجاوزها بالعمل اليومى الدائب لتكسير الحدود الثقافية وجعل الكتاب التونسى والمغربى حاضرين فى كلا البلدين من دون عراقيل وكذلك بالنسبة الى الفرق المسرحية والموسيقية ومعارض الفن والمثقفين أنفسهم .

ولهذا فعلاوة على العزيمة على تطبيق برنامج التبادل الثقافى الذى تم توقيعه بين وزيرى الثقافة المغربى والتونسى خلال سنة 1982 فان تدابير جديدة اتخذت ونص على البعض منها البلاغ المشترك .

ففى مجال النشر والطبع وترويج الكتاب تم الاتفاق على وضع خطة لاحداث رابطة للناشرين المغاربة والتونسيين والعمل على نشر كتب التراث والمؤلفات التى من شانها أن تبرز الجوانب الحضارية المختلفة للامة العربية والاسلامية على العموم وجوانب الترابط الفكرى والتاريخى بين المغرب وتونس على الخصوص .

كما تم الاتفاق على احداث مكتبة مغربية بتونس واخرى تونسية بالمغرب تشتمل كل منهما على سائر المطبوعات والوثائق والفهارس التى تعرف بمختلف الميادين المتعلقة بالبلد الآخر على أن يدير محافظ مغربى المكتبة التونسية بالمغرب ومحافظ تونسى المكتبة المغربية بتونس .

واتفق الجانبان كذلك على ضبط خطة عملية لترويج الكتاب المغربى بتونس والكتاب التونسى فى المغرب اسهاما فى التعريف بالحركة الفكرية للبلدين .

وفى مجال الآثار والمتاحف يتم تبادل الخبراء والفنيين وزيارة المسؤولين للاستفادة من الخبرة والتجارب المشتركة وانجاز مشاريع موحدة سواء فى ميدان الحفريات أو المبانى التاريخية أو صيانة التراث وجرده أو مجال المخطوطات أو تعميق البحث النظرى وفى هذا الاطار تم الاتفاق على تبادل الخبرة والتعاون من أجل الاسهام فى مشروع انقاذ مدينة فاس ومشروع صيانة القيروان باعتبارهما نتاج حضارة مشتركة وعبقرية موحدة وشاهدين من شواهد التاريخ العربى والاسلامى والانسانى عامة .

وكذلك تم فى ميادين المسرح والفن التشكيلى والموسيقى ضبط برنامج مفصل للتعاون والتبادل خلال السنتين المقبلتين 1983 ـ 1984 سواء بتكثيف اللقاءات أو تبادل الخبراء والمدربين والمهتمين أو الوثائق والمعلومات والبرامج.

اما فى ميدان السينما فقد اتفق الجانبان على تشجيع التعاون والتبادل وذلك بابرام اتفاقية للانتاج المشترك وتوريد الافلام .

وفى ميدان التنشيط والتوثيق الثقافيين تم الاتفاق على تبادل جميع الوثائق والبرامج والمعلومات والنصوص التشريعية وكل ما يتعلق بالوسائل الحديثة للتنشيط والتنمية الثقافيين وكذا الوسائل العلمية لاحصاء المعلومات الثقافية وجردها وتيسير الحصول عليها .

وبهذه الصورة وبتذليل كل الصعوبات التى ستنشأ عن تطبيق هذا الاتفاق باعتبار أن تنفيذ هذه الخطة يهم كل الوزارات فى كلا البلدين وخاصة الاقتصادية والمالية منها نكون قد خرجنا من التقوقع الذى ران على ثقافتينا منذ الاستقلال ونكون قد فتحنا عهدا جديدا لبلدان المغرب العربى فى المجال الثقافى ومهدنا الى نوع جديد من التبادل مع المشرق العربى .

البشير بن سلامة

عائد

شعر: نور الدين صمود

رَقَصَتْ بهِ السُّفُنُ   حِينَ شَاقَهُ الوَطَنُ ..
عائِدًا الى بَلَدٍ   أهْلُهُ بِهِ سَكَنُوا .
فِي دِيَارِ غُربَتِهِ   لَفَّ قَلْبَهُ الشجَنُ ..
لا تَهُزّهُ فِتَنٌ   حَيْثُ تَبْهَرُ الفِتَنُ .
إنْ صَحَا ، يُصَاحِبُهُ   طيْفُهُ ، فَيَفْتَتِنُ ..
وَيُقِض مَضْجَعَهُ   ، حِينَ يَهْجَعُ ، الوسنُ .
ويظلّ يَسْألُهُ :   هَلْ سَيَسْمَحُ الزمنُ ؟
.. وأراكَ ثَانِيَةً   يومَ تَغْرُبُ المِحَنُ ؟

★ ★ ★

إنّهُ ، بِدُونِ حِمىً ،   ضَائِعٌ ، وَمُمْتَهَنُ .
حُبُّهُ لِموطِنِهِ   بِالغِيَاب يُمْتَحنُ
فَذوو قَرَابَتِهِ   في ضُلُوعِهِ سَكَنُوا ..
أتُرَاهُ فَارَقَهُمْ ؟   أمْ هُمُ الأُلَى ظعَنُوا ؟

★ ★ ★

إنّ يَوْمَ عَوْدَتِهِ   يَنْتَهِي بهِ الحَزَنُ ..
فَهْوَ مِنّةٌ عَظمَتْ   حِينُ تُذْكرُ المِنَنُ

يَـوْمَ ضَمّـَــهُ وطَــنٌ ضَـمَّ رُوحَــهُ البَـدَنُ
فَهْـوَ طـائِـرٌ غَـــــرد رَاقص بــه الفَنَـــنُ ..
لا يـكـنَّ عَـــاطِفَـــةً . ســـرّهُ هُـوَ العَلَنُ .
لا تَسَلْـهُ عَــنْ ثَمَــنٍ عُمْـرُهُ هـوَ الثّمَـنُ ...
يَفْتَــدِي بِـــهِ وطنــاً والألى بِـــهِ قَطَنُــوا .
وَطـنٌ يُقَـــدّسُـــهُ كـلّ مَـا بِــهِ حسَنُ ..
وَتُــرَابُــهُ ذَهَـــبٌ هَلْ سَألْتَ مَنْ يَـزنُ ؟

★ ★ ★

لا تَلـمْ عَــوَاطِفَـــهُ إنْ أكـنّهـا البَــدَنُ ..
كالبِحَــار زَاخِـرَةً . كيْفَ تَعْبُــرُ السّفُـنُ ؟
والقَصِيـدُ مُقْتَضَـــبٌ هَــادِىءٌ وَمُتّــزِنُ ؟

نـور الـدين صمـود
تونس : 83/3/I

جرح .. "ملاك"

بقلم : محيي الدين خريف

للجرح فى الشعر الشعبى صورة خاصة تتشكل فى اطار العاطفة التى تملك على الشاعر حواسه فى غمرة احساسه بالحب الذى يستولى على قلبه فيتبادر له أنه مجروح ، وأن هذا الجرح الذى يشكو منه يتغلغل فى داخله ولا يظهر للعين لانه جرح معنوي لا حسي .

ومن خلال تفحصنا للنماذج نرى أن الشاعر الشعبى لا يحاور ولا يداور ولا يسمى الاشياء بغير مسمياتها بل ينطلق من ماهيات الاشياء وممارسته لها . ويتعامل معها كما يتعامل مع كل شيء فى حياته اليومية .

وقد رأينا من الشعراء الشعبيين من اهتم بموضوع الجرح وأفرد له القصائد الكاملة . وهى طريقة عندهم فى احلال الجزئى مكانة الكلى وليس هذا فحسب بل يبرزونها كموضوع يهتمون بجزئياته وأدق ما يكتنفه من علاقات ومواصفات ولعل اشهر « الجراح » فى تاريخ الشعر الشعبى التونسى هو جرح الشاعر أحمد ملاك .

أحمد ملاك .. حياته :

هو شاعر من شعراء الساحل عاش فى صفاقس فى أواخر القرن الماضى على عهد أحمد باي الاول ومن بعده ومن المظنون أنه بقي حتى ثورة علي بن غذاهم سنة 1864 اذ أن الرواة قد تناقلوا عنه شعرا قد قاله فى تلك الاحداث التى وقعت بتونس وهزت جميع أرجائها . وكان أحمد ملاك يتنقل على طريقة الشعراء الجوالين من الجنوب الى الشمال ناشرا شعره فى الاوساط الشعبية متغنيا به فى أفراحهم . حتى أصبح لا يقع فرح فى الجهة الا ودعي اليه أو استشير فيمن يجيزه من المغنيين و « الادبا » والقوالين . وكان يحضر مجلس أحمد باي مع الصفوة من شعراء عصره كاحمد بن موسى والعلاقى وسعد

الارزق وكان مبرزا مقدما على هؤلاء جميعا لما يمتاز به من جودة صياغة وطرق للمواضيع التى يجد لها دائما منحنى يخرج به عن التقليدى والمتعارف عند سائر الشعراء . من المعروفين فى ذلك الوقت وفى ذلك يقول :

ملاك لم المعانى طرزهم أحمد حفزهم

أهل الادب والسياسه قهرهم

جرح ملاك :

أما القصيدة المعروفة بجرح « ملاك » فهى من أجمل قصائد الشعر الشعبى التونسى لما توفر لها من صياغة فنية ، وعاطفة بعيدة عن التكلف وتصرف فى الوزن الذى استعمله لها زيادة على الجو الحضارى الذى هو أشبه ما يكون بذوق المدن وترف العيش فيها وهو الذى تتنسمه عندما تقرأ هذه القصيدة وأقفالها البالغة الروعة .

ففى بداية الطالع نفاجأ بكلمة « مجروح »وهى كلمة تغور الى أعمق أعماق النفس وذلك حين يقول :

انا كيف نساوي مجروح يا قلة طبيب ايداوي
ناري كوايا من فم سماوي عجل بدواي

ثم ينتقل بعد ذلك الى الاغصان ونجد أن المدار فى جميعها هو البحث عن دواء لقلبه هذا الذى يتيقن بأنه لا يجده عند غير حبيبته .

أ ـ ففى الغصن الاول يقدم لنا صورة لحاله عندما ذهب يبحث عن العرافين ليسألهم عن مشكلته فيعرف أن دواءه كامن فى فم أسد وهو كناية على أن من يحبها دونها عيون راصدة وحراسة شديدة فيتصور نفسه من خلال الرؤية الشعبية للاشياء . كأنه فقير أصاب كنزا من المال فلما مد يده ليأخذ منه شيئا جاءه الموكل بذلك الكنز فمنعه منه فأصبح من حزنه وأسفه ناحل الجسم ضائع العقل كسائح يضرب فى أطراف الارض لا يعرف أين مستقره ومقامه. وهو فى كل ذلك لا ييأس بل يردد : « تأتى الرخوة من بعد الشدة » وفى هذه

الصور الثلاث صورة الاسد الذى يحول بينه وبين من يحبها وصورة الفقير المحروم والسائح الهائم يمثل لنا ما يلقاه من عذاب :

أنا داي فى الجاش نفد عدت منه حاير ونكد
مشيت نرمى عند أهل الجد خط جدول
نلقى داي فى فم أسد كيف نعمل
بين نابه وظفره والخد لا ينجم يوصلـه حد
قلت زعمه تمرقش اليد خفت نعطل
واذا نبطل يوقع لى الفد كنت نعقل
مثل فقرى مقطوع اليد صاب حزنه من ذهب وقد
كيف يرزيها وجبد جا الموكل
أقصاه عنها والشى ابعد راح نقل
نحل جسمه والحيل ابرد حار فى أمره والعقل فسد
ورد روحه لابى يترد صار هابل
مثل سايح هوم ورقد بين الأجبل
تاتى الرخوه من بعد الشد كل ضد يماروه ابضد
على مرادى كاملة القد نا انمثل
منين سكنت فى وسط بلد وباب يقفل
زين الصحراوي فى وسط مدينه
فى كشك علاوي ما اصعب مرقاي
والتبر الضاوي حازوه اعداي

ب ـ أما العرف الثانى فيصور نفسه فيه « بالملسوع » وهو اللديغ فى حال قريبة من الموت ووديان الدموع تنساب من عينيه فكأنه « شقف » وهو ـ المركب ـ غريق فى البحر ولم يعد هناك رجاء لانقاذه بعد أن تكسرت سواريه وتمزقت أشرعته . فأصبح ربانه فى حسرة وقد ضاع رزقه فهو مثله ممزق القلب بسكاكين مصنوعة من أجود الحديد « الذكير » قد صوبها اليه ساعى وهو المفرق بين الاحباب . ولكنه رغم ذلك لا يرجع فهو مصمم على الوصول الى من يحبها ، ولو قيدوه بالحديد وباعوه بيع العبيد ونصبوا له

الحراس فى كل مكان لانه ممحون ومحنته بتلك التى رفعها حبه ألى أعلى مكان فصارت مثل الباشا الذى يلبس أغلى الحلل ويجلس فى وسط سراياه جلسة الابهة والكبرياء :

آه داي ماليه طلوع   صرت منه حاير مفجوع
أنا جرى لى مثل الملسوع   يا للفاعى
بدا ملوح مرمى مصروع   موش واعى
من عيونى وديان دموع   على خدودى تسكب وتفوع
صرت حاير مانى فى طوع   يا نزاعى
شقف غارف من غير قلوع   هو رداعى
لا جوانح لا صاب طلوع   ضاع رزقه ومشى مبزوع
أنا مثله قلبى مقطوع   بالرباعى
من ذكير مهند مصنوع   فى ايد ساعى
على مرادى ما عاد رجوع   لو عليها نمشى مبيوع
والحديد مفلس مطبوع   فى كراعى
لا نسيت زين المرصوع   من صباعى
لو يديروا عشه وفزوع   والعمالة وما تلم نجوع
أنا مسمى ظاهر مقروع   فى ذراعى
بالمحاين قلبى مولوع   كبر داعى
ممحون وهاوي   م اللى رافعها غرامى متقاوي
ولفي مشكاي   باشا بكساوى، في وسط سرايا

ج ـ فى العرف الثالث نراه يتحدث عن الداء المكين أو الحب الذى لم يستطع أن يصرح به منذ سنين وهو لذلك يبحث عن الطبيب المجرب الفطن الذى يستطيع أن يبثه شكواه رغم أنه يعلم أن دواءه مستحيل . لانه ليس عند السلاطين أصحاب الصولة . ولا فى قصر حصين يمكن أن يقتحمه ولا فى بحور عميقة يستطيع الغوص وراءه ولا عند الفراعنة أهل القوة . ولا هو بين أطباق السحب فيتمكن من الوصول اليه . وليس هو من الجن حتى يتوصل الى طردهم بالرقى والتمائم ولكنه فى مكان يصعب الوصول اليه انه عند

حبيبته التى تسكن بين « النطحة » و « البوطين » وهما اسمان لنجمين بعيدين لا تلحقهما يد ولا يصل اليهما انسان مهما كان صاحب صولة :

آه داي فى الجاش مكين ـ صرت منه حاير ومحين
توه ليه مده وسنين ـ مانقوله
لا طبيب مجرب وفطين ـ تشتكوله
لو دواي عند سلاطين ـ نوجدوله فى الناس معين
ولو دواي فى قصر حصين ـ نطلعوله
ولو دواي قطع البحرين ـ نغطسوله
ولو دواي عند فراسين ـ نوجدوله فى الناس قرين
ولو دواي عند فراعين ـ وأهل صوله
ولو دواي عند سحابين ـ نوصلوله
ولو دواي عند الجنين ـ بالعزايم يحضر فى الحين
لكن دواي متصعب فين ـ جا نزوله
بين نطحه ومنزل بوطين ـ من يطوله
المعانى تحب التبيين ـ على مرادي كاملة الزين
جات عند ناس مضانين ـ وأهل دوله
طول الليل يباتوا حيين ـ ينبصوله
شركهم جنفاوي ـ نصبوا لى الاشواك ع الريم الداوي
ولفي مشكاي ـ بو محزم خاوي زين القطاي

د ـ أما فىالغصن الرابع فنراه يتوجع : « آه داي فى الجاش غراف » فقد صار متغلغلا فى قلبه بالرغم من عدم وجود النار الحقيقية : « بلا سوامر » ولذلك نراه يبحث عن أهل الجد من الاطباء الماهرين ليجد عندهم دواء لدائه لقد صار الحلو فى فمه مرا عندما منعوا عنه « قوت المشتاق » حبيبته وحبسوها فى مدينة حصينة مغلقة الابواب تكاتف على حراستها جماعة من الد أعدائه :

آه داي فى الجاش غراف ـ بلا سوامر يكوى حراف
مشيت ننشد ناس الحذاف ـ بالرطابه

حين تاقوا عنى الاسفاف   من ضبابه
الحلو ولى عنى درياق   منين زينوا قوت المشتاق
فى مدينه ديمه تغلاق   وقفل بابه
قاطعين اليد مع الساق   بالصعابه
عنى تسعفوا ميعاد ارفاق   بالبشاطر وسيوف أرقاق
داروا عسه تقطع الاعناق   على غلابه
اذا الطفله كاحل الارماق   ليه تابه
سكر وحلاوى   وانواع ظهرت للنفس شهاوى
بستان نهايه   بلقاحه راوي وكيوس ملايا

هـ ـ فى الغصن الخامس نراه دائما يستمد أدواته من البحر ومن التجار فى تعرضهم لمصاعب وتحملهم للمشاق : « تاجرى مثل المصاب فى سفينه » ذلك الرجل الذى تقاذفت به الرياح فى بحر هائج فلم يبق له منجى ولا مخرج فصار كالسكران يهذى بتلك الحبيبة التى حال الحساد بينه وبين لقائها ونصبوا له الشباك يريدون قتله . والتخلص منه :

آه داي خلف الاعطاب   بلا سوامر يكوى لهاب
أنا جرى لى مثل المصاب   فى سفينه
لا بقى لى منجى وصواب   كبير بينه
أنا جرى لى مثل المغتاب   عدت دايخ من غير شراب
على مرادى كاحل الاهداب   سود عينه
منين صرنا لثنين أحباب   واستوينا
قداش لينا بنه وطياب   أنا وريدى صقال الناب
حين ضجت منا الارقاب   وانقصينا
لا بقى لى سنده وخطاب   شور زينه
صارت عنا غنه وجواب   وداروا عسه تقطع الارقاب
حلفوا لوازم وايمان صعاب   قاتلينه
لو كان يحصل ما بقى يسياب   من ايدينا

يباتوا يهوموا في مثل كلاب   طفل صغير وشايب وشباب
الشيء منالله مقدر الاسباب   سابقينه
عارضين الصيد الغلاب   عارفينه
شراي بلاوي   الصيد عمره ما يرجع حاوي
هايا سعفاي   ثمش مغناوي ، يفهم مغناي

و ـ أما في العرف السادس والاخير فهو يتحدث عن الحرق الملتاعة التى ذاقها في سبيل من يحبها هذه التي حجبها عنه « الازفات » والعذال فلم يجد وسيلة للقائها الا بأن يستعين بالعرافين الذين أعلموه بأنها سوف تذهب الى العرس فما كان منه الا أن ذهب وراءها يسأل الحفالات عنها :

على مرادي ذقت الليعات   فوق صهد النيران نبات
توه لي مده واوقات   يا حزوني
درقوها صربة الازفات   على عيوني
قصدت عارف صاحب حكمات   كاني نحلم ريت منامات
بايت نحلم يا حفالات   سر سكوني
كان كاهن جاب ادقازات   شرهوني
بدا ينزل قد الرحلات   قال عند سود الرمقات
كانها للعرس مشات   في ظنوني
كل محفل فيه الفرجات   موش دوني
هاني ننشد في الحفالات   على مرادى سود الهذبات
كان هي للمحفل جات   خبروني
وكيف نهبل بعض الساعات   رجعوني
أصغوا الطالب جاب الابيات   «ملاك» ظاهر صاحب هيلات
انكان علتش بعض الكلمات   جاوبوني
وانكان نشكر في الخندودات   ساعدوني
شكرى متقاوي   على التحظ الشكر ابكل لغاوي
ريدى مشكاي   محورها كاوى في وسط اعضاي

ذلك هو (جرح ملاك) الذى يبدو لنا عند مطالعته أن الشاعر أحمد «ملاك» الذى يمثل قمة الشعر الشعبى التونسي يحمل بين جنباته روح شاعر مجنح متمرد على الاعتبارات التقليدية وفى شعره تصورات وتخيلات مبدعة ساحرة.

محيي الدين خريف

أبي .. موتك لا يموت !

شعر : الحبيب الهمامي

(1)

اذا متَّ حقا
فَمَنْ سيُرَاقِص شمْس الصباحْ ؟!
وَقدْ أخذْتَ مِنْ جَبينِكَ زينتها
وَاسْتَعَدَتْ لِتُضْرِمَ في قَلْبِكَ الإنْشِرَاحْ

(2)

اذا متَّ حقا
فَمَنْ يفتَحُ البَابَ للطيْر
عِنْدَ انْدِلاعِ الرّبيع ؟
لِيَنْطَلِقَ الإحْتِفَالْ ؟
وَمَنْ يُقْنعُ الوَرْدَ بالإمْتِثَالْ
لإمْر الشّذا والجَمَالْ ؟

(3)

اذا متَّ حقا
فسوْفَ أكرّس حُزْنِي

لِخِدْمَةِ أيَامِيَ البَاقِيَهْ

* * *

اذا متّ حقا
فَسَوْفَ أوَدّعُ عُرْسِي
وَأطعَنُ فَصْلَ القَرَنْفُلِ
حتى تَفَتّحِ أزْمِنَةِ الوَجَعِ الدّامِيَهْ

* * *

اذا متّ حقا
فَسَوْفَ أذبَحُ أفْرَاحِيَ القَادِمَهْ
وَأبْنِي طقوس الفَجِيعَةِ في لُغَتِي
وَأؤَسّس في عُمُرِي للأسى عَاصِمَهْ

* * *

أفتّش عَنْكَ
وَأنْتَ – كما قَالَتِ الشّمْس –
تَمْرَحُ بَيْنَ الفَرَادِيس
تَأكلُ مِنْ شَجَرِ الحُسْنِ مَاطابَ
تَشْرَبُ مِنْ شفةِ الجَنّةِ الخَمْرَةَ المُؤْمِنَهْ
أفتّش عَنْكَ
لأوْلَدَ
يَا هَارباً مِنْ تَفَاصِيلِ أزْمِنَةِ الوَجَعِ المُزْمِنَهْ

(5)

رَحلْتَ
وبَعْدَ رَحيلكَ
قدْ فكرَ البَحْرُ في الإنتِحارْ
وَفكرَتِ الشمْسُ في منْعِ أضْوَائِهَا
عَنْ سَمَاءِ النهَارْ
وَفكرَتِ الشجَرَاتُ
بِقتْلِ العَصَافِيرِ
حتى اندِلاعِ فصُولِ الدمَارْ
رَحلْتَ بِلا مَوْعِدٍ أو عَلامَهْ
وبَعْدَ رَحيلك
فكرْتُ في وَضْعِ حدٍّ
لتَاريخِ مملكةِ الأرْض
كي يَتفَجّرَ يَوْمُ القِيَامَهْ

الحبيب الهمامي

الأصالة والمعاصرة
في « موسم الهجرة إلى الشمال »

بقلم : البشير المجدوب

الأصالة لغة تعني رسوخ الأصل وثبوته ، وهي بمفهومها الحديث الارتباط الوثيق الواعي بالبيئة الأم وفاء لنظرتها الى الوجود وموقفها من الحياة ، والاغتذاء بتراث الأمة استمدادا من صميم قيمها وتقاليدها .

وينبغي التأكيد لجانب الوعي لأن به يزداد المرء حرصا على أصالته واقبالا عليها ، وتعهدا لها ، وتمكنا ورسوخا فيها ؛ كما أن الوعي يكسب الأصالة سعة أفق وامتدادا ودواما ، وهو فى الآن نفسه أداة غربلة واختيار تساعد على تنقية الأصالة مما علق بها من غثاء الزمن واكداره ، ويقيها ما قد يهددها من زيغ وانحراف .

وبفضل الوعي النير البصير ايضا يتحقق الوجه الآخر والمفهوم الثاني للأصالة ، وهو تميز الشخصية وطرافتها ، وما لها من حرية فى التصرف واستقلال على الرغم من صدق الانتماء الى بيئتها وانغراسها فيها وشدة التحامها بها ، فيصبح الفرد الاصيل وكأنه أصل قائم بنفسه ، يصدر عن ذاته فى جميع تصرفاته وأوجه نشاطه ، وإن كان مشدودا الى روح الجماعة مستنيرا بها ، مستلهما إياها .

وتلك هي الأصالة الحق القائمة على التوفيق الحركي والتأليف الحي الخصب بين ذاتية الانسان وأخص منازعه وتطلعاته وبين الجماعية والشمول فيه ... وحدة تآلفت عناصرها كأتم ما يكون التآلف والانسجام ؛ على أن عملية التأليف هذه جهد مستمر وكسب متجدد وتوتر دائم لا هدنة فيه ولا قرار ، وهو لذلك يفضي الى توازن دقيق فى منتهى الدقة لا يثبت على حال .

الشخصية بهذا المفهوم هي الشرط اللازم والسبيل الوحيد لا سبيل غيره الى المعاصرة.ونعني بالمعاصرة التلاؤم مع أصلح مظاهر العصر ونزعاته..

تقمص روح العصر والانفتاح الواعي المتبصر لما يحدث فيه من تجديد وابتكار . وبعبارة اوجز ان يكون المرء اشبه بزمانه منه بآبائه .

علاقة الأصالة بالمعاصرة :

إن علاقة الأصالة بالمعاصرة ، كما تراءت لنا ، علاقة تكامل جدلي ، فالأصالة إذا تجاوزت نفسها واعية مستبصرة ، منطلقة الى المستقبل نزاعة الى التغيير والابداع أصبحت معاصرة . تمام الأصالة وغايتها أن تؤول الى المعاصرة لأن في ذلك سر بقائها وانبعاثها وما ينبغي لها من حركية وحياة .

فاذا كان في وسعنا أن نتصور أصالة دون معاصرة وهو ما يعيش عليه الكثير من شعوب العالم الثالث ، فانه لا سبيل البتة ولا وجود مطلقا لمعاصرة دون أصالة ، وان كانت ، فهي معاصرة زائفة لا غناء فيها ، كاستحالة الفرع دون أصل والبناء دون أساس .

ونعني بالجدلية في علاقة الأصالة بالمعاصرة أنها علاقة توتر وتجاذب وصراع ، كلتاهما تنزع جهدها الى مغالبة الأخرى والطغيان عليها وأن تحل محلها أو تقضي عليها ، ومهمة الشخص الأصيل - وناهيك بعسرها وقسوتها اذ أصعب الامور وأبعدها منالا ، وخاصة على مستوى الفعل والسلوك ، التوسط والاعتدال - أن يسعى في التوفيق بين النزعتين والتأليف بينهما . ولا خير أبدا ولا منفعة ترجى من كلتيهما دون هذا التوفيق والتأليف .

لمحة عن مضمون الرواية :

رواية « موسم الهجرة الى الشمال » تصور تجربتين لنموذجين أو جيلين من المثقفين العرب (الافريقيين) .. تجربة فاشلة اختتمت بمأساة لأن صاحبها (وهو مصطفى سعيد أحد البطلين الرئيسيين) تقبل الحضارة الاوربية على علاتها ، لم يوفق الى نقدها والسيطرة عليها لشدة افتتانه بها ، فكان بذلك رمز الانبتات والضياع .

أما التجربة الثانية فكانت ايجابية اجمالا .. لأن صاحبها ، وهو الراوي ، لم ينسق مع تيار الحضارة الغربية ، وقد جعل بينه وبينها مسافة أمكنته من التبصر وساعدته على الاحتفاظ - الى حد ما - بتوازنه . والفضل في ذلك

الى ما رزقه من أصالة واعية أفاد منها تجذرا فى تربتـه وتعاطفا مع أهلـه ، وعشيرته ، ومناعة ازاء تحديات الحضارة الدخيلة .

على أن التجاوب بين الراوى وعشيرته لم يدم طويلا ، وسرعان ما تشوش واختل عند الاحتكاك بالواقع الاجتماعـى والسياسى ، ومـا فى المجتمع من مظاهر التخلف المريع ، الباعث علـى التشاؤم واليأس لـولا عمق الروابط التى تشد البطل الى بيئته .

مقومـات الأصالـة :

من أهم مقومات الأصالة التى تطالعنا بها « موسـم الهجرة الى الشمـال » التعلق الشديد بالأهل والعشيرة والقرية والوطن ، يقوى ويحتد حتى يبلـغ أحيانا درجة العشـق والهيـام . وهذه العلاقـة تتجاوز التلقائيـة والعاطفة العفويـة الى مستـوى الوعى البصير والارادة الفعالـة (1) انهـا المحبـة اليقظى ، المتصلة الجيشان ، الدائمـة الانبعاث .. لهبـا مقدسا يتعهد أبدا بـالوقـــود .

وقد وفق الكاتب الـى التعبير عن هذه العاطفة العارمة المتوهجة صدقـا وحماسا ، فى بساطة حلوة وعفوية سلسـة رائعة لا أثر فيها لأى مبالغـة أو تزيد او تفخيـم وتهويـل .

قال الراوى : « عدت الى أهلى يا سادتى بعد غيبـة طويلة .. سبعة أعوام على وجه التحديد ، كنت خلالها أتعلم فى اوربا . تعلمت الكثير ، وغاب عنى الكثير ، لكن تلك قصة أخرى . المهم اننى عدت وبـى شوق عظيم الى أهلى فى تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل . سبعـة أعوام وأنـا أحن اليهـم وأحلم بهم ، ولما جئتهم كانت لحظة عجيبة أن وجدتنـى حقيقة قائمـا بينهم ، فرحوا بى وضجوا حولى ، ولم يمض وقت طويل حتـى أحسست كأن ثلجـا

---

(1) يقول الراوى : « ... اننى **أريد** أن آخذ حقى من الحياة عنوة ، **أريـد** أن أعطى بسخاء ، **أريـد** أن يفيض الحب من قلبى فينبع ويثمر . ثمة آفاق كثيرة **لا بـد** أن تزار ، ثمة ثمار **يجـب** أن تقطف ، كتب كثيـرة **تقرأ** ، وصفحات بيضاء فى سجل العمر سأكتب فيها جملا واضحة بخط جرىء » موسم الهجرة الى الشمال ، ط 2 ، بيروت 1972 .

يذوب في دخيلتي ، فكأنني مقرور طلعت عليه الشمس . ذاك دفء الحياة في العشيرة فقدته زمانا في بلاد « تموت من البرد حيتانها » . تعودت أذناي أصواتهم ، وألفت عيناي أشكالهم من كثرة ما فكرت فيهم في الغيبة .. قام بيني وبينهم شيء مثل الضباب أول وهلة رأيتهم ، لكن الضباب راح .. (2) .

وهذه فقرة في نفس المعنى أروع بيانا ، ازدوج الخيال والموسيقى فيها حتى كأنها قصيد من النثر . وقد ساعد الاسلوب على خلق هذا الجو الشعري بما فيه من بلاغة الفصل ، وجاءت الجمل القصيرة الخفيفة أصدق تعبير عن حالة « الحالم اليقظان » تتداعى الصور في ذهنه وتتعاقب عفوا لاستغراقه في نشوة الذكرى ، شأن العاشق اتحد بصورة محبوبه قد هام في محاسنه وجدا وهذيانا .

« ... لقد عشت أيضا معهم (أي الانكليز) ولكنني عشت معهم على السطح لا أحبهم ولا أكرههم . كنت أطوى ضلوعي على هذه القرية الصغيرة ، أراها بعين خيالي أينما التفت . أحيانا في أشهر الصيف في لندن ، اثر هطلة مطر ، كنت أشم رائحتها . في لحظات خاطفة قبيل مغيب الشمس ، كنت أراها . في اخريات الليل ، كانت الأصوات الأجنبية تصل الى أذني كأنها أصوات أهلي هنا . أنا ، لا بد ، من هذه الطيور التي لا تعيش الا في بقعة واحدة من العالم .. » (3) .

وقد يتسامى هذا الشعور فاذا هو ضرب من الاجلال والتقديس ، واذا هو أشبه ما يكون بالنشوة الصوفية عمقا وصفاء .. لطافة وسموا ؛ ويتجلى ذلك في موقف الراوي من جده ، يعانقه فتمتلئ نفسه خشوعا واكبارا .. رقة وحنانا ، كانه بحضرة قديس لطفت البشاشة من مهابته ، ويستشعر سعادة غريبة كما لو اتصلت الروح بالروح ، وانكشف له سر الحياة والبقاء ، واتحد بالكون أجمع تجاوبا وانسجاما ، ولا بدع فالجد هنا رمز للأصالة الحية الصامدة المتحدية لعوادي الدهر .

« .. وتمهلت عند باب الغرفة وأنا أستمرئ ذلك الاحساس العذب الذي يسبق لحظة لقائي مع جدي كلما عدت من السفر . احساس صاف بالعجب

---

(2) نفس المرجع ، ص 5 .
(3) نفس المرجع ، ص 52 — 53 .

من أن ذلك الكيان العتيق ما يزال موجودا أصلا على ظاهر الأرض . **وحين اعانقه استنشق رائحته الفريدة التى هى خليط** من رائحة **الضريح الكبير فى المقبرة ورائحة الطفل الرضيع** . وذلك الصوت النحيل المطمئن يقوم جسرا بيني وبين الساعة القلقة التى لم تتشكل بعد والساعات التى استوعبت احداثها ومضت ، وأصبحت لبنات فى صرح له مدلولات وأبعاد **نحن بمقاييس العالم الصناعى الاوربى فلاحون فقراء ، ولكننى حين أعانق جدى أحس بالغنى ، كأننى نغمة من دقات قلب الكون نفسه** . انه (أى الجد) ليس شجرة سنديان شامخة وارفة الفروع فى أرض منت عليها الطبيعة بالماء والخصب ، ولكنه كشجيرات السيال فى صحارى السودان ، سميكة اللحاء حادة الاشواك ، **تقهر الموت لانها لا تسرف فى الحياة** . وهذا وجه العجب . انه عاش أصلا ــ رغم الطاعون والمجاعات والحروب وفساد الحكام .. » (4)

جوهر الاصالة الشرقية اذن ، كما يتراءى لنا من هذه الفقرة ، **وسر بقائها وتطاولها** على الموت والفناء يتمثل فى اقتصادها فى **لذائذ الحس** وترجيحها جانب الروح على جانب المادة .

ومن اهم اركان الاصالة ايضا فى الرواية التعلق بالارض وحب الطبيعة ، وقد أبدع الكاتب فى وصف حبه لارضه واعجابه الشغوف بالطبيعة ، مترجما عن دقة احساسه وعمق خبرته بخصائص طبيعة بلده وقوة انفعاله بجمالها فى أسلوب يفيض شاعرية .

ومما يلفت النظر ان الكاتب لم يصف الطبيعة لذاتها ، كما لو كانت شيئا منقطعا عن حياة البشر .. اطارا جميلا .. لوحة فى متحف او صورة فى كتاب لم يكن موقفه من الطبيعة موقفا رومنتيكيا بحتا ، لقد كان يجد فى الطبيعة وفتنتها ما يؤكد علاقته ببيئته الاجتماعية ، ويزيده تأصلا فيها ، وانسجاما معها ، ومن ثم إحساسا بالمسؤولية ازاءها ، وشعورا بأهميته وقدرته على العطاء . فهو مرتبط بالغير ، متصل بالجماعة ينجذب اليها ويتعاطف معها لا ينى يحاورها ويناجيها فى اخص احواله .. حتى فى حال التأمل ولحظات الانفعال الفنى .

ذلك ان الطبيعة ، فى مثل هذا المجتمع الزراعى الذى لم تمسخ الحضارة

(4) نفس المرجع ، ص 77 .

الغربية قيمه ، جزء عضوى من كيان الشعب الحسى والروحى ، فهما ـ أعنى الطبيعة والشعب ـ يؤلفان وحدة صميمة لا انفصام بين عناصرها .

ثم ان الكاتب قد أدمج لوحات الطبيعة (وهى كثيرة متناثرة فى تضاعيف الرواية) فى صميم حركة القصة ونسقها الدرامى ، جزءا لا يتجزأ منها ، وقليل من القصاصين ، حتى العظماء منهم ، من يحسن هذا الفن ، اعنى ادراج الوصف فى الحركة بحيث يكون من حوافزها ، وباعثا من بواعث الحياة والايحاء ، وليس عنصرا على حدة .. شيئا زائدا ملفقا .. بهرجا لا يمت الى جوهر العمل الروائى بصلة . وفى ذلك مصداق ما ذهبنا اليه من القول بمكانة الطبيعة وعظم تاثيرها فى نفس الراوى ونوعية نظرته اليها . فالطبيعة كما قلنا ليست اطارا جامدا ، وانما هى عامل له دور هام فى مجرى القصة حتى لا تكاد تعد فى جملة أبطالها .

« ... وانظر الى النهر بدأ ماؤه يربد بالطمى ـ لا بد أن المطر هطل فى هضاب الحبشة ـ والى الرجال قاماتهم متكئة على المحاريث ، أو منحنية على **المعاول** . وتمتلىء عيناى بالحقول المنبسطة كراحة اليد الى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . أسمع طائرا يغرد ، أو كلبا ينبح ، أو صوت فأس فى الحطب وأحس بالاستقرار **أحس أننى مهم ، وأننى مستمر ، ومتكامل . لا .. لست أنا الحجر يلقى فى الماء لكننى البذرة تبذر فى الحقل** » (5) .

ومن دعائم الاصالة عادات القوم وتقاليدهم ، طريقتهم فى العيش ومذهبهم فى الحياة ، من ذلك اسلوبهم فى السكن والمعمار ، واللباس والطعام ، والحديث والتفكير . وقد رسم الكاتب أطرافا منها ـ حتى الجانب المحرج من هذه الحياة واعنى به الجنس ـ فى شغف بالغ وفى كثير من العطف .

« .. **وقفت عند باب دار جدى فى الصباح ، باب ضخم عتيق من خشب** الحراز لا شك **أنه استوعب حطب شجرة كاملة ، صنعه ود البصير** ، مهندس القرية الذى لم **يتعلم النجارة فى مدرسة كما كان يصنع عجلات السواقى** وحلقاتها ... هذه الدار الكبيرة ليست من الحجر ولا الطوب الأحمر ، **ولكنها من الطين** نفسه **الذى يزرع فيه القمح ، قائمة على أطراف الحقل تماما ، تكون امتدادا له** . وهذا واضح من شجيرات الطلح والسنط النامية

(5) نفس المرجع ، ص 9 .

فى فناء الدار والنباتات التى نمت فى الحيطان نفسها حيث تسرب اليها الماء من الأرض المزروعة ... ودخلت من باب الحوش ، ونظرت الى اليسار واليمين فى الفناء الواسع . هنالك تمر نشر على بروش ليجف . وهنالك بصل وشطة . وهنالك أكياس قمح وفول وبعضها خيطت أفواهه وبعضها مفتوح . وفى ركن عنز تأكل شعيرا وترضع مولودا . **هذه الدار مصيرها مرتبط بمصير الحقل ، اذا اخضر الحقل اخضرت ، وحين يجتاح القحط الحقول يجتاحها هى أيضا . وأشم تلك الرائحة التى يمتاز بها بيت جدى** ، خليط من روائح متناثرة رائحة البصل والشطة والتمر والقمح والفول واللوبياء والحلبة ، أضف اليها رائحة البخور الذى يعبق دائما فى مجمر الفخار الكبير . **رائحة تذكرنى بتقشف جدى فى العيش ، وترفه فى لوازم صلاته ...** » (6) .

ومن أهم مقومات الأصالة وأبعدها أثرا فى حياة القرية وفى نفس الراوى الدين . وموقف الراوى منه موقف غريب ينم عن بالغ العطف والتقدير والاكبار والاجلال ، مع أنه ليس ثمة ما يوجب القول بأن الراوى من المتدينين ، وما يدعو الى الجزم بأصالة ايمانه وصحته .

(6) نفس المرجع ، ص 74 ــ 76 • وهذه لوحة انطباعية فيها لمحات على أزياء الفلاحين فى السودان وبعض من هيئتهم وسلوكهم : « ... ذلك أبى وأولئك أعمامى وأعمامى وقد ربطوا حميرهم فى شجر الجميز . لا يفصل ضباب بينى وبينهم هذه المرة ، فأنا قادم من الخرطوم ، فقط ، بعد غيبة لم تدم أكثر من سبعة أشهر . اننى أراهم بعين واقعية . جلابيبهم نظيفة ولكنها غير مكوية ، وعمائمهم أكثر بياضا من جلابيبهم ، شواربهم تتفاوت طولا وقصرا ، سوادا وبياضا . بعضهم له لحى ، والذين ليست لهم لحى أهملوا حلاقتها . بين حميرهم حمارة سوداء لم أرها من قبل . ينظرون الى الباخرة دون اكتراث اذ تلقى مراسيها ويزدحم الناس عند مدخلها . انهم ينتظروننى فى الخارج ، لا يهرولون لملاقاتى . ويصافحوننى ويصافحون زوجتى على عجل ، ولكنهم يمطرون الطفلة قبلا ، يتناوبون حملها على ايديهم ، ريثما تحملنا الحمير الى الحى هذه حالى منذ كنت تلميذا فى المدرسة ... » نفس المرجع ص 67 .

فكيف تأتى له التوفيق بين موقفه هـذا من الدين وبين ثقافتـه الاوروبيـة القوية المستحكمة ؟ .

السر ، فى نظرنا ، يكمـن فى شخصية الجد .. تلـك الشخصية القويـة الاشعاع المهيمنة على أهل القرية جميعا حتى المثقفين منهـم (حتى مصطفى سعيد المثقف المسخ لم يكـن بمعزل عن تأثير هذه الشخصيـة علـى الرغـم من انبتاته واغترابه فالراوى على يقين من ان هذه الشخصية تستمد أعظـم قوتها ، وسر اشعاعها وصمودها من الدين .

فشخصية الجد ، وهى كما قلنا آنفـا ، شخصية رمزية تستعيـر من سحـر الرمز وقوة ابداعه جاذبيتها وثراء دلالاتها وتعدد أبعادها ... هذه الشخصية هى البرهان الحى المحسوس على أن القوة الحق هى قوة الروح ، وما من قـوة تستطيع الوقوف ازاءها او تحديهـــا .

وتتمثل براعة الطيب صالح الفنية فى تشخيصه لتلك الحقيقـة المأثورة وتأكيدها ، وهى أن قوة المبادىء وحيويتها رهـن القائمين عليها المتقمصين لهـا .

وقد وفق الكاتب أبعد التوفيق حينما سلك مسلـك الرمـز والايحـاء لا الوصف والشرح ، فى تصويره لهذه المقومات جميعا ، مجسما اياهـا فـى أشخاص أحياء مما أفادها أبلغ التأثير وغاية الاقناع .

« ... ووصلت عند بيت جدى فسمعته يتلو أوراده استعدادا لصلاة الصبح ألا ينام أبدا ؟ صوت جدى يصلى كان آخر صوت أسمعه قبل أن أنام ، وأول صوت اسمعه حين استيقظ . وهـو على هذه الحـال لا أدرى كم مـن السنين كأنه شيء ثابت وسط عالم متحرك . **وأحسست فجـأة بروحـى تنتعش كما يحدث أحيانا اثر ارهاق طويل ، وصفا ذهنى ، وتبخرت الافكـار السـوداء التى أثارها حديث مصطفى سعيد . البلد الآن ليس معلقا بين السماء والارض ولكنه ثابت ، البيوت ثابتة ، والشجر شجر ، والسماء صافية ولكنها بعيدة . هل كان مـن المحتمل ان يحدث لى ما حدث لمصطفى سعيد ؟ قـال : انـه أكذوبة . فهـل أنا أيضا أكذوبـة ؟ اننـى من هنا . أليست هذه حقيقـة كافية ؟ ...** » (7) .

---

(7) نفس المرجع ، ص 52 .

دور الأصالــــة :

وللأصالة دور ذو أهمية حيوية قصوى اذ هى تشمل جميع جوانب شخصية الفرد والمجتمع ، ويتمثل هذا الدور فى خصائص منهــا :

1 ـ تغذية الشخصية وتنميتهـا والمساعدة علـى بنائهـا بنـاء يتسم بالاعتدال ، ويقوم على التوازن بين مختلف وجـوه هذه الشخصية وملكاتها من عقل وارادة وعاطفـة وخيال ، مما يجعلها فى مأمن من التطرف السلبـى والانحراف الهدام .

فمما لا شك فيه أن الحضارة الغربية بافراطها فى تزكية العقل وتعظيمه . واعتمادها الكلـى عليه قد ادخلت الضيم علـى شخصية أبنائهـا والمنتمين اليها بالتبعيـة الدائرين فى فلكها ، فتشوشت عقلية القوم وانعدم التـوازن الضرورى لسلامة الحياة واستقامتها ، فكان من ذلك طغيان النزعة الفرديـة فالقطيعة بين أفراد البيئة الواحـدة والشعور بالغربـة والانفصال ، وفقدان الانسجام بين الانسان وبين بيئته الطبيعية والكون أجمع .

يقول مصطفى سعيد ، وشخصيته مجرد افراز للحضـارة الغربيـة نتـاج خالص لها ، وان كان صورة مضخمة محرفة عن الأصل حتى كأنها صورة مسخ (والداعى الى هذه المبالغة الفنية الحرص على تحميل الصورة دلالة رمزيـة واعطاء الشخصية بعدا نموذجيا) يقول : « ... كل سلاحى هذه المدية الحادة فى جمجمتى (يعنى عقله) ، وفـى صدرى احساس بارد جامـد ، كـأن جوف صدرى مصبوب بالصخر ... » (8) .

« ... وتضحك مســز روبنسن وتقول لى : **ألا تستطيع أن تنسـى عقلـك أبـــدا** » . (9)

« ... اننا نعجب كيف أن رجلا (أى مصطفى سعيد) ذكيـا كهذا هـو فـى الحقيقة فى غاية الغباء . **انه منح قدرا عظيما من الذكاء ولكنه حرم الحكمة .** انه أحمق ذكى . هذا ما قاله القاضـى فى « الأولد بيلـى » قبـل أن يصـدر الحكـم . » . (10)

---

(8) نفس المرجـع ، ص 30 . ويردد مصطفى سعيـد نفس المعنـى : « كان عقلى كأنه مدية حادة » ص 35 .

(9) نفس المرجع ، ص 32 .

(10) نفس المرجع ، ص 114 .

ويقول مصطفى سعيد معبرا في مرارة عن شعوره بالغربة في بيئته الأم ، وعجزه عن التأقلم فيها ، وشوقه الجامح الى الرحيل عنها ، لما يعانيه من تمزق الذات وذبذبتها من أثر طغيان الثقافة الاوربية عليه ، وقوة سيطرتها على شخصيته ومدى تحكمها فيها :

« ... لا جدوى من خداع النفس . ذلك النداء البعيد لا يزال يتردد في أذني . وقد ظننت أن حياتي وزواجي هنا سيسكتانه . ولكن لعلي خلقت هكذا ، أو أن مصيري هكذا ، مهما يكن معنى ذلك ، لا أدري . **انني أعرف بعقلي ما يجب فعله** ، الأمر الذي جربته في هذه القرية مع هؤلاء القوم السعداء .. **ولكن أشياء مبهمة في روحي وفي دمي تدفعني الى مناطق بعيدة تتراءى لي ولا يمكن تجاهلها . واحسرتي اذا نشأ ولداي** ، أحدهما أو كلاهما ، **وفيهما جرثومة هذه العدوى ، عدوى الرحيل** » . (II)

وعلى العكس من ذلك ما تعقده الأصالة الشرقية الحق من لحمة وتجاوب بين أبناء المجتمع ، ومن تعاطف وانسجام بين المرء ومحيطه الأوسع ، فاذا هو — كما يقول الطيب صالح على لسان الراوي في عبارة فريدة مبدعة — كأنه « **نغمة من دقات قلب الكون نفسه** » (I2) .

مظهر آخر من مظاهر استفحال النزعة العقلية في بلاد **الغرب تضاؤل الروح الديني** وما ترتب على ذلك من نزعة الى الشك والالحاد ، واستهانة بالقيم الخلقية ، والانسياق — تبعا لذلك — وراء متع الحس والتهالك على لذة الجنس ، سدا للفراغ وتعويضا عن **الحرمان الروحي والغذاء العاطفي المفقود** .

ومن مفارقات هذا الوضع التقاء العلم ، على عظمته ، بالانهيار الخلقي مما يحدث انقساما فادحا في الشخصية أشبه بالانفصام .

يقول مصطفى سعيد : « ... كنت أعيش مع نظريات كينز وتوني من (اكبر علماء الاقتصاد) بالنهار ، وبالليل أواصل الحرب (يعني حرب الجنس) بالقوس والسيف والرمح والنشاب » . (I3)

ويقول أيضا معبرا عن تمكن جنون الجنس من نفسه ، واستبداده بها :

(II) نفس المرجع ، ص 70 — 7I .
(I2) نفس المرجع ، ص 77 .
(I3) نفس المرجع ، ص 37 .

« ثلاثون عاما وأنا جزء من كل هذا ، أعيش فيه ، ولا احس جماله الحقيقى ، **ولا يعنينى منه الا ما يملأ فراشى كل ليلة** » (14)

وهذا ما دعا مصطفى سعيد ، فى لحظة من لحظات الوعى والاستبصار واشراق الضمير الى أن يصرخ منددا بافلاسه الروحى ، مشهرا بزيف شخصيته .

« ... ومرة خطر لى ... أن أقف وأصرخ فى المحكمة : « **هذا المصطفى سعيد لا وجود له . انه وهم ، اكذوبة . واننى أطلب منكم أن تحكموا بقتل الاكذوبة** . (15)

2 ـ وللأصالة دور آخر ، فهى ، بفضل ادماجها الفرد فى بيئته ومحيطه الأوسع ، تكسب الشخصية عمقا واتساعا .. خصبا وثراء ، فيحس الفرد الأصيل ـ ولا وجود حينئذ للفرد فى الحقيقة ـ بأنه شخصية لا حصر لها ولا حد ، وأنه الجماعة كلها ، لالتحامه بها ، وتعاطفه الحميم معها ، باق على قيد الحياة لا انتهاء لوجوده ما بقيت الجماعة ؛ فتفيد حياته بانفتاحها على الآخرين وتضامنها الوثيق معهم ، وجهة وهدفا ، ويكون لوجوده مبرر ومعنى ، وقد أمن الدوران حول ذاته ، شأن من طغت عليه النزعة الفردية ، فاذا هو سجين نفسه عقما وخواء .

« ... نظرت خلال النافذة الى النخلة القائمة فى فناء دارنا ، فعلمت أن الحياة لا تزال بخير . أنظر الى جذعها القوى المعتدل ، والى عروقها الضاربة فى الأرض ، والى الجريد الاخضر المنهدل فوق هامتها فأحس بالطمأنينة . أحس **أننى لست ريشة فى مهب الريح ، ولكنى مثل تلك النخلة، مخلوق له أصل ، له جذور ، له هدف** » (16) .

---

(14) نفس المرجع ، ص 39 ـ 40 .

(15) نفس المرجع ، ص 39 .

(16) نفس المرجع ، ص 6 . وقريب من ذلك قول الراوى : « .. وانظر الى النهر بدأ يربد بالطمي ... والى الرجال قامتهم متكئة على المحاريث ، أو منحنية على المعاول . وتمتلىء عيناى بالحقول المنبسطة كراحة اليد الى طرف الصحراء حيث تقوم البيوت . أسمع طائرا يغرد ، او كلبا ينبح ، او صوت فأس فى الحطب ، وأحس بالاستقرار . أحس اننى مهم ، واننى مستمر ، ومتكامل . « لا .. لست أنا الحجر يلقى فى الماء لكننى البذرة فى الحقل » . ص 9

3 ــ ومن شأن هذا الانسان الأصيل المشبع بأرضه وتراثه أن يقوى على الأخذ والعطاء ، وأن يؤهل ، لما اكتسبه من غنى روحى وتميز فى الشخصية وطرافة ، ومناعة خلقية تقيه الذوبان فى الغير ، وحرية فى التصرف ، وقدرة على توجيه شخصيته والتحكم فى مصيره ... أن يؤهل لان يكون طرفا كفئا ايجابيا فى الحوار على المستوى الحضارى .

« ... لقد **عشت أيضا معهم** (الانكليز) ، **ولكننى عشت معهم على السطح ،** لا أحبهم ولا أكرههم . كنت **أطوى ضلوعى على هذه القرية الصغيرة ، أراها** بعين خيالى **أينما التفت ... أنا لا بد من هذه الطيور التى لا تعيش الا فى** بقعة واحدة من العالم . صحيح أننى درست الشعر ، بيد أن هذا لا يعنى شيئا كان من الممكن أن أدرس الهندسة او الزراعة أو الطب . كلها وسائل لكسب العيش . الوجوه هناك ، كنت اتخيلها قمحية أو سوداء ، فتبدو وجوهها لقوم أعرفهم . هناك مثل هنا ، ليس احسن ولا أسوأ . **ولكنى من هنا ، كما أن النخلة القائمة فى فناء دارنا ، نبتت فى دارنا ولم تنبت فى دار غيرها . وكونهم جاءوا الى ديارنا ... هل معنى ذلك أننا نسمم حاضرنا ومستقبلنا . انهم سيخرجون من بلادنا ان عاجلا او آجلا ، كما خرج قوم كثيرون** عبر التاريخ من بلاد كثيرة . سكك الحديد ، والبواخر ، والمستشفيات والمصانع ، والمدارس ، ستكون لنا ، وسنتحدث لغتهم ، دون احساس بالذنب أو احساس بالجميل . **سنكون كما نحن ، قوما عاديين ، واذا كنا أكاذيب ، فنحن أكاذيب من صنع أنفسنا** » (17) .

(للبحث صلة)

البشير المجدوب

---

(17) نفس المرجع ، ص 52 ــ 53 .

تحية للحبيب

شعر: عز الدين الشابي

حبّي وقد باتَ ملءَ الروح والصدرِ   يزري بصبري ويستعصي على شعري
والصب إن لم يبحْ تفضحْهُ أدمعهُ   وكمْ أذاعتْ عيون الصب من سرّ !
ما حيلتي وبياني غيض واختنقت   نصاحتي حين جف الحرف في شعري
فاض الوفا في دمي فانهال مخترقا   فيض الشرايينِ بالإعلان والجهر
ما أعسرَ الجهرَ حينَ السرّ يرهقُنَا !   حتى ولوْ عُززَ الإخفاءُ بالصبرْ
ما حيلتي والهوى يطغى على قلمي   والحب في خاطرى أقوى من الشعر ؟
حبي تعالى فلمْ أكلف بغانيةٍ   في عينها قد تلاقى الليلُ بالفجر
أو صبتّ الواحةُ الخضراء روْعتها   في طرفها أو زهتها زرقة البحر
ما تلك من أربي إني فتى ملكتْ   عليه مهجتهُ روح الأب الحرّ
منْ جاء تونس والطاغوت يصرعها   بالمسخ والذّل والتجنيس والكفر
ومِنْ بنيها دعاةٌ أدعِياءُ اذا   ما ضمهمْ مجلس بثوا من الضر
وغارَ جاهمُ في قصدهم فغدوا   يسرّهمُ أن بقوا في مستوى مزر
وكنتَ تكره أن تبقى مجاملةً   بينَ الركود وبين العجز والقصر
والشعبُ في يأسهِ يجترّ أمنيةً   تستهلك العمر والأجيال في خسر
لذَا انسلختَ عنِ التمويه مقتنعا   أنّ الحياة صراعٌ دائمُ السّير

* * *

من قال : إنك «قصر هلال» تشهدُهُ ... يبني بمحضرك التاريخ من صفر
يمناه في مقود « الزرقاء » تدفعــه ... نحو المخاطر والأهوال والعسْر
والبردُ يأخذُ من رجليه مأخذَهُ ... والجوعُ يأكلُ منْ خفّاقه البكر
يطوي المسافات أياما بلا وهن ... ايجمعَ الناس في سرّ وفي جهر
يمناهُ في مقودِ « الزرقاء » تُمسكُهُ ... أما القميص ففي اليسرى غدا يذري
جفّ القميص بحرّ الصيف يومئذ ... كم جف من قبل فوق الصدر والظهر !
أمسى الحبيب طريد القهر معتقلا ... بين المنافي وبين الزجر والأسر
لكنّ بسمتهُ الجذلى ترافقـــهُ ... وتبعثُ البشر والآمال في الغير

* * *

جئنا كما نحن والأشواق تملؤنا ... كيف اهتدينا إليك الآن ؟ لا ندري
هلْ حبنا للهدى والصدق ألهمنا ؟ ... أم حسنا قادنا للحقّ والخيـــر ؟
أم وجهك النير الوضاح يجلبُنا ؟ ... أم عطفك الوارف المخضل بالعطر ؟
أم عزك الخالد الجبار منتصب ... في غرة الدهر مرتاح لما يجري ؟
أم قدرة كالتي الإعجاز يخلقها ... تختال في حلة من شامخ الفخر ؟
أم رأيك الثاقبُ الخلاق ؟ أم خلُق ... يمتازُ بالطيب والإشراق والطهر ؟
لا يبلغُ الحصر بعضا من شمائلــه ... هل للكمال وحسن الخلق من حصر ؟
أم فطنة أكد الإلهام روعتهــا ... خطتْ خوارقها في هامة الدهر ؟
أم نظرة البعد للأحداث تُبهرنا ؟ ... أم حكمة حزتها من ليلة القدر ؟
أم ذكريات بها التاريخُ محتفظ ... قد صاغها للنهى في بهجة الفجر ؟
أم كلّ ذاك وما أخفتهُ ذاكــرتي ... من وافر الغنم أو من خالد الذكــر ؟
يوحي إلينا بشعر صادقٍ عطر ... أم في الحقيقة أنت الملهم السري ؟

* * *

مشروعك الشرقُ محتاج لحكمته ... ما أحوج الشرق للتوفيق والنصر !
إني أهيبُ به والظرف محتدمٌ ... لا يسمح الآن بالأخطاء والكبر

أن يجمع الرأي في ما قلته سلفـًا   حتى يحقق ما ينوي على الفـور
لن « يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى تُفوَّض باسم العرب في الأمر
المعجزات التي عشنا حـوادثها   تروي لنا حقبا من أخصب العُمر
في منهج ناجعٍ تمتدّ مدّتُـهُ   خمسين عاما مواعيدٌ مع النصر

★ ★ ★

بنـزرت منطلق الأحرار ثروتها   في عهدكم أصبحتْ تربو عن الحصر
الفضل فضلك في تدعيم مكسبها   والفضل فضلك في خيراتها الكثر
والفضل فضلك في تتويج نهضتها   بالجسر ما أروع التتويج بالجسر !
لما اعتلى في السماء خطت أناملهُ   اسم الحبيب الذي أهداهُ للثغر
حتى اذا مدّ فوق البحر أذرعهُ   كأن موسى يشقّ الدربَ في البحر

★ ★ ★

الطيبُ المتنبي في فتوتـه   وقد تحدى عناء السعي والسير
جاءت به فرس حلت على عجل   بموطن العز والأبطال والنصر
وقارَنَ المتنبي سيف نعمته   بمنْ لنعمته فضل على الدهر ،
بعد «الوقفتَ وما في الموت» أنشدني   ما صاغه العبقر النشوان من سحر
وقال في موقف المشدوه معترفا   بالنقص في وضعه للسيف بالشعر :
(شتان بين الذي في الجفن وقفتهُ   والموتُ في نومه كالأبله الغر
وبين من داس بالأقدام شوكتهُ   في يقظة تُنذر الأبطال بالشر)
أخلى سبيلك مرتدّا على عقبٍ   خوفا علينا وتقديرا لما يجري

★ ★ ★

أهدى أغسطس للأحقاب ثالثهُ   في ثالث القرن ربانا ولم يدْرِ
حتى اذا حان للتاريخ موعدهُ   قام الزمانُ بكشف المنقذ الحر
ضنت بأمثالك الأزمانُ جائرةً   والعقم أقعدها عن لفتة الخير

حتى اذا أكد الإلحاح حاجتـــــهُ … أهـدتك معجـزة للناس والعصـر

لانتْ لديك كما لو كان أولهـــا … ماض مضارعـهُ في حالـةِ الأمر

فأصبحَ الصعبُ سهلا في مراحلـهِ … والمستحيلُ غدا في منتهى اليسـر

* * *

قِفْ يا زمان كفى سيرا كفى عجلا … قِفْ عندَنا ولتُقِمْ في ربعنا الحرّ

قِفْ واعترفْ وأضفْ مجدا لأمتنا … واستوقف الدهر في أرجائنا الخضر

واملأ سجلك فالتاريخ ما صنعتْ … يَدُ الحبيب وما أملى على الدهر

واكتب على هامة الأيام ملحمةً … قضّى « س لحبيب » فيها زهرة العمر

إن شاء أمرا عصيا كان أم عجبـًا … قِيدَ الزمانُ ولبىَّ صيغة الأمـر

للريح في البحـر أهواء وفي بلـــدى … تجرى الرياح كمـا قررت أن تجري

* * *

أيامنـــا قمم بتنا نشيدهـــــا … منْ وحي هديك للدنيا وللذكـر

يَعنيك مما اتى في الشعر أصدقهُ … لا ما تحلى بوشيٍ كاذب مغـر

أنا أحبك لا خـوفا ولا طمعـــا … أنا أحبك في سـري وفي جهـري

أنا أحبـك معناها يحركـــــني … أنا أحبك في جسمي دم يجـري

هلْ وفق الشعر في تبرير عاطفتي ؟ … إن لم يوفق فقديكفيك ما تدري

بعض من الحبّ مكتوب وأغلبه … في خفقـة القلب أو في ومضة الفكر

ليس المهمّ اذن ما خطـهُ قلمـــي … إن الأهمّ هنا في باطـن الصـدر

عـز الـدين الشـابى

بنـزرت

المقــــبرة ...

قصة : جواد صيداوي

« كل شيء محتمل الوقوع في هذه الحيـاة الكلبـة الا أن نـرى العساكر الاسرائيليين داخل منازلنا وداخل عيوننا .. » .

لم يستطع الشيخ أمين ، العاقل أن يصدق ما يحدث حواليه وهو يغـادر مقبرة البلدة مرهقا مع اطلالة الفجر . لقد أمضى الليل بكامله يتلو القـرآن فوق قبر ميت جديد . كانت أصوات المدافع والانفجارات تمزق سكون الليل فيحاول اخراسها رافعا عقيرته بالتلاوة بنبرة متحدية . البلدة مقفرة تماما ، أين ذهب الناس ؟ وأين اختفى المقاتلون ؟ منذ أن شاع نبـأ سقـوط قلعـة الشقيف ، مساء أمس ، استبد بالجميع خوف مثقل بالذل ، وبدل أن يحيوا الليل بذكر الله ويستمدوا منه القدرة على الصمود في قتال عدوه وعدوهم ، أحيوه بالاستعدادات العاجلة والمحمومة للهرب بعيدا . « ما غزي قوم قط في عقر دارهم الا ذلوا ، فلا حول ولا قوة الا بالله .. » الدبابات الاسرائيلية تتقدم عبر الحقول المزروعة بالتبغ ، وباستطاعة الواقف فوق سطح منزله ان يشاهد، يا للهول ، أرتالها المنتشرة هنا وهناك دون أن ينبثق من باطن الارض الطيبة أنس أو جن لوقف الشر الزاحف بكل جبروت الباطل . « الدنيا تؤذن فعـلا بزوالها .. » . بالامس ، بالامس فقط ، كان المقـاتلون يقسمـون بطلقـات ألسنتهم وطلقات رشاشاتهم بأنهم سيشعلـون الارض والسمـاء في وجـه الغزاة ، ولكن سقوط قلعة الشقيف ، بعد مقتل جميع المدافعين عنها ، جعل البلدة ساقطة عسكريا ، فكان لا بد من تراجع تكتيكي (التراجـع بنـوعيه التكتيكي والاستراتيجي عملة عربية جديدة شديدة الـرواج هذه الايـام) . « تخرصات وحجج باطلة » قال الشيخ أمين لنفسه بصوت مهمـوس وهـو يدرك ساحة البلدة الرئيسية . لم يسبق للشيخ أن رأى الساحة نظيفة من البشر كما يراها هذا الصباح المشؤوم . حتى في الليـل عندما يـذهب الى المقبرة أو يعود منها ، كانت الطرقات والازقة تبدو مثقلـة بأنفاس النائمين

وبتهويم أحلامهم . سار على الرصيف الحجرى لا يدرى أين يذهب وماذا يفعل . الطاولات الخشبية التى تبسط عليها الخضار والفواكه ، كل صباح ، ترتع عليها جيوش الذباب بحرية واطمئنان ، والجيش الآخر يرتع بدوره فوق أرضنا بحرية واطمئنان . الشمس ترتفع بخجل . لقد أدمنت شمسنا الخجل. القصف يقترب . « لماذا القصف ؟.. » الدرب ممهدة أمام القادمين . فكر فى الذهاب الى الجامع والصعود الى مئذنته ليتبين مدى تقدم الدبابات المغيرة ، ولكنه لم يفعل . « باستطاعة طائراتهم أن تكتشف النملة فوق الارض » كما يقول الحاج درويش دائما . قاتل الله الحاج درويش على طول لسانه . كان يردد باستمرار : « اذا حم أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون » محاولا اخراج الحروف من مخارجها الاصلية ، ولكنه هرب الملعون مع من هرب . « الى أين ؟.. » .

ثمة كلب هائم فى طرف الساحة الجنوبى ، لا يدرى ، هو الآخر ، أين يذهب وماذا يفعل . والحيوان يشعر أيضا ، متى كان أليفا ، بالوحشة . حدق الشيخ فيه طويلا : ذنبه داخل باسترخاء بين قائمتيه الخلفيتين ، وأنفه ملتصق بالارض . لقد اجتمع عليه الجوع والخوف . لماذا لم يلحق بالهاربين ؟ ، ربما لانه أكثر التصاقا بالارض من البشر . « لا حول ولا قوة الا بالله » مد الشيخ يده الى جيب قمبازه وأخذ السبحة السوداء بين أصابعه . ليته يلتقى بانسان واحد فقط ، بالحاج حسن صاحب الفرن وصاحب الزوجتين ، أو بعلي النمري تاجر الخضار ذى الصوت الانثوى . حتى خولة الصفدية التى تملأ الساحة دائما بجسمها المترهل وصوتها الماجن ، لا أثر لها على الاطلاق . ربما كانت تستعد لاستقبال الغزاة على طريقتها الخاصة . « استغفر الله ! » لقد حاول الشيخ أمين أن يردها الى الرشاد مرارا ، ولكنه كان دائما كمن ينطح جدارا . بل كثيرا ما كان يتلقى رشقات من لسانها يحمر لسماعها وجه الغلام . ولا تتجه اهاناتها البذيئة الا الى عمامته الصغيرة ، لانه بلا لحية ولا شاربين (من يتصور وجود شيخ أمرد الوجه ؟) . ومنذ أن اعتم الشيخ أمين ، فى غفلة من الزمن ومن المؤمنين ، بهذه العمامة الصغيرة ، وارتدى هذا القمباز الفضفاض ، وهو يحاول فرض مشيخته على الناس ، ولكن بدون فائدة . ذلك أنه لم يجاوز أعواما طويلة عند معهد دينى مشهور، وهو لا ينتمى الى أسرة معروفة بتفريخ الشيوخ ، ولا يحسن اعداد الشاى ، والأدهى من ذلك كله أنه أمرد الوجه ، فقط بعض شعيرات وبرية الشكل وألوان تتوزع بخجل فوق أقاليم وجهه المستطيل ، كتلك التى تنبت وسط صلعة قاحلة يحلو

لصاحبها أن يتلمسها بأطراف أناملة كلما داعبه مرأى النساء بوهم الفحولة . لذلك لم يكن من المستغرب أبدا أن لا يتجرأ الشيـخ أميـن يومـا على امامة المصلين ، حتى فى الحالات التى يغيب فيها الشيخ الرسمى عن البلدة ، لانه إن هو فعلها مرة ، فقد يغرى بعض المصلين وراءه من المؤمنين الخبثاء (والمؤمنون بشر كسائر البشر) بالاتيان عمدا ، بتصرفات شاذة ، دون مراعـاة منهـم لحرمة المكان . لذلك اكتفى من المشيخة بغسل جثث الموتى وتكفينها وتـلاوة القرآن فوق قبورها مقابل أجر يقيه بعض الجوع .

« الناس مدخولون فى أمورهم ، الا من عصم الله » (أين هم المعصومون؟). كل ما حدث فى الماضى القريب وما يحدث اليوم دليل غضب من الله « مـاذا بكم بزمان يتزيى فيه الرجال بزى النساء ويتزيى فيه النساء بزى الرجال ، وتركب ذوات الفروج السروج .. » . الدبابات الاسرائيلية تصل الى أطراف البلدة ، صوت هديرها الراعد بات يملأ الاجواء . الكلب يختفى من الساحة . بعض أكوام الزبالة المتبقية من الامس تنتشر هنا وهناك . على شرفة أحـد المنازل بعض الثياب المنشورة على حبل ، لقد نسيها أصحابها بـدون شك . يجب أن يغادر الساحة الى مكان آمن ، ليس من المستحسن أن يعرض المؤمن نفسه لموت مجانى . « سنجعل من هذه البلدة الصامدة مقبرة للغزاة » . لقد جعلوا منها مقبرة للصمود « لا حول ولا قوة الا بالله .. ما غزى قوم قط فى عقر دارهم .. » . القصف يشتد ، كان أبو موسى يقول دائما : « طالمـا أن أسلحتنا فى ألسنتنا ، وطالما أن عقولنا فى آذاننا ، فنحن تالفون حتما » . رحم الله أبا موسى ، فقد كان ، على الرغم من فسقه وقلة دينه ، وحـده فى هذه البلدة على حق . أدركته القذيفة الآتية من الحدود الجنوبية فى عقر داره ، حدث ذلك قبل سنتين . لقد ارتاح أبو موسى ، لا عينا ترى ولا أذنا تسمع .

ــ يا شيخ أمين ، يا شيخ أمين .. اختبىء يا مجنون ! لم يدر الشيخ أمين من أين جاءه الصوت، كانت النبرة مكتومة، هناك على ما يبدو بعض الصامدين وراء الابواب المغلقة . ولماذا يختبىء ؟ ومن هو المجنون ومن هو العاقل ؟ « إذا حم أجلهم .. » انفجار هائل يقع على مقربة من الساحة ، أعقبه صمت ثقيل . الكلب الهائم يجتاز الساحة كالسهم ، من أين جاءته القوة على الجرى ؟ لا شك أنه شعر بالخطر الداهم فقرر الهرب الى مكان آمن . وعلى الشيخ أن يأوي هو أيضا الى مكان آمن . لم يعد هناك مكان آمن فى هذا العالم الموبوء . « إن الله قادر ، اذا شاء ، على اهلاك الغزاة فى لحظة عين » . ولكنه جلت مشيئته ، لا يبدو أنه يريد ذلك . والناس ، بدورهم ، ليسوا راغبين بالمقاومة لان كلمة

« نصر » قد حذفت من المعجم العربي . والعدو يعرف ذلك جيداً ، ويعرف - حسب مزاعم الحاج درويش ، التي أكد أبو موسى ، رحمه الله ، صحتها - اسم كل مقاتل من حملة الكلاشينكوف ، وانتماءه الحزبي والمذهبي والعاطفي ، ويعرف المقاتل الحقيقي من المقاتل المزيف ، وما يقوله ويردده إمام البلدة في خطبة صلاة الجمعة ، بل ويعرف متى يضاجع الرجل زوجه . « قاتلهم الله ، إنهم لا يتركون أمرهم سدى ، فهم أشد تمسكا بباطلهم منا بحقنا » . الجو يزداد ثقلا وخطورة . ربما كان من الافضل لشيخ أمين أن يغادر مع المغادرين. « ولكن من الذي يقرىء الموتى ، اذا كان هناك موتى ، شهادة الموت ؟ » شيخ البلدة الرسمي غادر البلدة منذ أسبوع مع أغنيائها . للاغنياء شيوخهم وللمعدمين شيوخهم . « لا » . من واجبه البقاء . اذا قدر الله موت امرىء فلا راد لذلك . واذا قدر البقاء لامرىء فما من قوة في الارض تنال منه . فليأتوا . « إنهم آتون على كل حال » . ربما أصبحت دباباتهم عند مداخل البلدة تتقدم بحذر . كل خطوة محسوبة بدقة . رحم الله أبا موسى عندما كان يقول : « الاسرائيليون لا ينتصرون علينا بالسلاح فقط » . كان أبو موسى ، على الرغم من فسقه وقلة دينه ، يقول أشياء معقولة جدا ، وكلما كان يحتدم النقاش ، أمام دكانه ، حول الاوضاع السائدة والاوضاع المرتقبة ، كان ، رحمه الله ، يحسم النقاش بقوله بصوت عال : « فتشوا عن البترول .. » .

الطائرات والدبابات وأصوات الانفجارات تطبق على البلدة اليتيمة برعدها المخيف . من الافضل الابتعاد عن هذه الساحة ، لان البقاء في وسطها نوع من الانتحار ، ثم اذا هو تجنبه الموت ، فقد يرى نفسه مكرها على رؤية الغزاة بالعين المجردة . اتجه غربا عائدا الى المقبرة ، فقد يجد بين الموتى من يخفف عنه وطأة الشعور بالوحشة وبالذل . الطريق ضيقة كخلقه . أصوات بعض الصبية ترتفع من أماكن مجهولة : « وصلوا ، وصلوا .. » حث الخطى بدافع غريزي . ثمة من يرحب بهم بدون شك « لا حول ولا قوة الا .. » . انفجار قريب جدا . اذا هانت كرامة المرء هان بنظره كل شيء . دخل المقبرة من طرفها الشمالي ففوجىء بكثرة الهاربين اللاجئين اليها ، جاؤوا يحتمون بالموتى ، منذ أكثر من ألف سنة وهم يحتمون بالموتى « شبيه الشيء منجذب اليه » ، صيحات الخوف تقطر ذلا . رآهم يعدون بالملايين ، بعشرات الملايين ، ورأى المقبرة تتسع وتتسع الى ما لا نهاية . سار ببطء دون أن ينتبه الى أنه يدوس على شواهد القبور . وعند قبر أبي موسى أقعى بعياء يبكي .

جواد صيداوي

توقيعات يومية

شعر: مفرج كديم
(مالطة)

المهرة

تسألني زوجتي
في آخر السهرة
عن قصة المهرة
وكيف أدخلتها في غابة الصدر

★ ★ ★

وكنت كلما تشير للهواء
أسير فوق الحاجز السري
عند حائط السكوت
وأرفع الحراب والقنوط
كي أفقأ الفقاعه
بالكلمة الشجاعه
فتنتشي — في حصن قلبي —
مهرة المكابره
وتستطيل في سمائنا
كي تركل السكون

★ ★ ★

لكنني ، وقبل أن أرتاد عالم
الخديعه
أحبستها في العالم السري
وأحكم الرتاج
بالصمت والمنام .

المقبرة

ألقيت جثة الأحزان من يدي
لكن زوجتي
أتت من آخر الفناء
وأخرجت من مخزن البكاء
جاروفها القديم ،
والفأس ، وصرة الدموع
وشمرت عن همة النساء
وأعملت — في صقل قلبي —
فأسها

كي تحفر الجبانة القديمه
ثم استدارت في جلال
ترفع – عن برودة البلاط –
جثة
ثم تبكي في سواد ثوبها
وتزرع الدموع فوق جلد
خدها
علامة .. ورايه

الأحصنة

جاءوا
ربطوا أطرافي بسلاسل من نار
عند نهايتها ، ربطوا أحصنة
الموت
شربوا خمر الحزن العارم
وانطلقوا في الميدان
أحضر كل منهم سوط الزمن
الرنان
طوقت الأحصنة الطلقات الرعناء
انطلقت أحصنة البرق
وطارت في أنحاء الأرجاء
فانشطرت مني الأجزاء

الحائط

القيت بالسلام
من قبل أن يرتد طرفها
– إذا التقت عن غير قصد
نظراتنا –
ترتج خائفه
وتسحب فوق جسمها
ذيل ثوبها
وطفرة الدماء في الخدود
الراجفه
والنظرة التي رأيت خلفها
– من قبل أن تعود –
ظل جنة
للفارس الموعود .
القيت بالسلام
لكنها ما ردت السلام
بل غمغمت
كأن صوتها قد ضاع في الطريق
أو أنه ألقت به سيارة مجنونة
فارتد بين نظرتي
والحائط المنصوب من
دوامة العيون .

الأيقونة

ألقاك يا شهيد
مصلبا فوق اليفط
أمام بلدة النسيان
فإنها

أَلْقَاكَ فِي المَيْدَانْ
تَنْتَظِرُ الذينَ يَرْجعُونْ
بالنّصْرِ وَالألْحَانْ
لكنّمَا الزّمَنْ
يَمْتَدّ عَبْرَ الشّاهِدِ المَسْنُود
بَيْنَ حَائِطِ المِحَنْ
خَيْطا مِنَ الوهَنْ
لكنّمَا الزّمَنْ
يَمْتَدّ فِي شَوارِعِ المدِينَهْ
كي يَعْقِدَ الجَدِيلَهْ
في شعْرِ طفْلَتِكْ
كي تعجبَ النّخّاس
فيَشْتَرِيهَا النّاس
أيْقُونَةً جَمِيلَهْ

مَنْ ؟ !
نَظرْتُ خَلْفَ الظلّ
أسْتَطِيعُ الذينَ يَدْخُلُونَ مِنْ
بَوّابَةِ المَسَاءْ
مِنْ غَيْرِ أنْ يَدَاهِموا الأطفال
أوْ يَنْطوِي
— فِي آخِرِ المَمَرّ —
زَهْرُ الفُلّ
أوْ تَجِيءَ زَوْجَتِي بالقَهْوَةِ
السّوْدَاءْ
فنعقِدُ الكلامَ فَوقَ جُثّةِ الأحْزان
نَظَرْتُ ،
لكنّني ...
لم أجِدْ أحَدْ

مفرح كريم

خواطر حول الوحدة الجمالية
للتراث الفني الاسلامي

بقلم : علي اللواتي

كان من العسير ، الى زمن غير بعيد ، الحديث بصورة واضحة عن الجمالية الاسلامية كمفهوم محدد المحتوى . فالتراث الفكرى الاسلامى فى عمومه — اذا استثنينا بعض النصوص الفلسفية والادبية المتفرقة — لم يطور خطابا جماليا شاملا ومتواصلا يمكن وصفه بالنظرية. ثم ان دراسة الحاجة الجمالية ومبرراتها التاريخية والروحية عند الشعوب الاسلامية ، لم تظهر عند الدارسين الغربيين التقليديين الا فى شكل مباحث جانبية أو تكميلية لدراسة الجماليات الغربية. وحتى عندما بدأ الاستشراق فى الاهتمام مباشرة بالابداعات الفنية الاسلامية كموضوع قائم بذاته ، فان أغلب مؤرخى الفن الاسلامى من الاوروبيين أظهروا قصورا واضحا عن فهم المنطق الجمالى الخاص للتراث الاسلامى واكتفوا على هامش اعمال الجرد والاحصاء للموروث الفنى بطرح جملة من الآراء العامة والمفاهيم السطحية عن مبررات الابداع عند المسلمين . فكثيرا ما نجد عندهم مثلا عبارة كراهية الفراغ أو النفور من الفراغ Horreur du vide وهو النزوع فى آثار الفن الاسلامى الى شغل المساحات على نطاق واسع بالعناصر الزخرفية وهذا المبدأ الجمالى ليس فى الواقع الا مفهوما وصفيا يتصل بالاسلوب ولا يعدو أن يكون أكثر من ملحوظة بصرية لا تفيدنا بشىء عن مشروعية ذلك الاسلوب على المستوى الفلسفى الجمالى . وعبارة النفور من الفراغ تفضح فى الحقيقة ذلك الميل اللاشعورى عند أولئك المؤرخين الى مقارنة أو قياس الظاهرات الفنية الاسلامية على النموذج الغربى . فيكون مفهوم كراهية الفراغ فى الواقع اشارة الى مفهوم غربى نقيض اى الى موقف الجمالية الغربية القابل للفضاءات الفارغة الخالية من الزخرفة .

ومثل ذلك يقال فى الاستعمال التعسفى لمعنى التجريد فى الحديث عن أساليب الزخرفة الاسلامية وخاصة بخصوص الرقش العربى Arabesque

بوحداته النباتية والهندسية ولا يخفى فقدان لفظ تجريد لاى معنى بالنسبة الى الحضارة العربية الاسلامية فنماذج التوريق النباتي والتضفير الهندسي هي تكوينات معروفة العناصر ومستمدة في الاصل من التجربة الادراكية الواقعية وكذلك تكوينات الخط العربي الحاملة لآيات قرآنية وأحاديث نبويةفهي بالنسبة الى المسلمين بعيدة عن التجريد ما دامت تنقل الحقيقة القرآنية حقيقة الكتاب الذي يمثل في ذهن المجموعة الاسلامية الواقع الاسمى بذاته . والحقيقة أن كلمة تجريد مشحونة الى ابعد الحدود بمعان غريبة عن البيئة الاسلامية فهي تفترض وجود تقابل أو تضاد بين تمثيل أو نقل وصفي للعالم المرئي الى العمل الفني من ناحية ، وبين وجود موضوعي مستقل للاشكال المبتدعة خارج أي ارتباط بذلك العالم . ومعنى التجريد يكرس ردة فعل ضد نظرية المحاكاة بمختلف صيغها ومدلولاتها الادبية والفنية في الغرب وقد بلغ التضاد ذروته في بداية القرن العشرين مع الرسام كاندينسكي وأصحابه عندما وضعوا موضع الشك مشروعية الارتباط بعالم الواقع المرئي . وفي مثل هذا السياق المتأثر بالقاموس الفني الغربي تقسم الفنون الاسلامية الى كبرى وصغرى ودينية ودنيوية وهي مقولات غريبة عن الذهنية الاسلامية كما يسارع الكثيرون من مؤرخي الفن الاسلامي بكل سهولة وبناء على تفسير سطحي أو مغرض أو استنادا الى حادثة عابرة الى اعتبار الحضارة الاسلامية معادية للصور أو محطمة للصور Iconoclaste قياسا على التاريخ الغربي نفسه الذي شهد حركات معادية للصور كالتي حدثت في القرن الثامن (م) في الامبراطورية البيزنطية على يد القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح Monophysistes أو تلك التي تزعمها الراهب الفلورنسي Savonarola في عصر النهضة الاوربي وقد يكون من الانسب ان نعبر عن الوضع الهامشي للتصوير في الحضارة الاسلامية باستعمال مفهوم اللايقونية Aniconisme بدل Iconoclasme مثلما نصح بذلك تيتوس بوركهارت .

هذه ملاحظات عابرة حول المفاهيم المستعملة خاصة عند الجيل القديم من مؤرخي الفن الاسلامي في الغرب للحديث عن ابداعات الحضارة الاسلامية . وهي كما قلنا تطرح على هامش عملية الجرد والتصنيف والاحصاء للتراث العيني للفن الاسلامي وقد حالت النظرة الغربية للعالم المتركزة حول ذاتها دون تفطن الاختصاصيين الاوربيين ، لفترة طويلة ، الى امكانية وجود نظرة جمالية شمولية تفسر التراث المذكور فيضوء الضرورات الروحية والتاريخية لشعوب الاسلام ، وقد أدى كل ذلك على مستوى المنهج الى دراسة الآثار

الفنية دراسة وصفية أسلوبية وترتيبها على أساس جغرافي. فتجد فنا مصريا وفنا سوريا وفنا فارسيا وفنا تركيا وفنا بربريا . فكأنما الفن الاسلامي ليس أكثر من الحصيلة المادية لهذه الفنون دون خط جمالي ناظم وموحد لها جميعا .

وفي خلال السنوات الاخيرة ، تغيرت شيئا ما نظرة الاستشراق الى الفن الاسلامي وحقق العاملون في هذا الميدان بعض التقدم على طريق فهم أفضل المعطيات الابداع الجمالي للاسلام . وذلك من أجل تحديد علاقة خصوصية بين المنجزات الفنية في الحياة الروحية للمسلمين . وأصبح من بين المشكلات المطروحة ، التساؤل عما اذا كان للنظرة الاسلامية للعالم تأثير خاص ومتفرد على الابداع عند المسلمين وما هي الوسائل الاسلوبية والتقنية التي استعملها المسلمون للتكيف مع شروط تلك النظرة وبعبارة أخرى بدأت مع هذا السؤال محاولات أولية لدراسة الجمالية الاسلامية بصورة أكثر عمقا . ويمكن ان نذكر هنا أعمال تيتوس بوركهارت وخاصة كتابه الفن الاسلامي لغته ومعناه الصادر سنة 1976 ومن ناحية أخرى رسالة الاستاذ اليكسندر بابادوبولو ــ حول جمالية الرسم الاسلامي ــ منشورات جامعة «ليل» سنة 1972. ويؤكد الاول (تيتوس بوركهارت) على وحدة الفن الاسلامي وغلبة الطابع القدسي عليه وارتباط كل الاشكال والمنشآت والمعالم الفنية الاسلامية بمعان روحية تتصل بالارث الباطني للاسلام . كالعلاقة بين شكل الكعبة والجهات الاربع الرامزة لاركان العالم وكذلك علاقة القباب بصورة السماء ، والربط بين الطواف في الحج ودوران السماء حول محورها القطبي الخ ... ونلاحظ هنا التركيز على التفسير الباطني اذ ان بوركهارت من كبار المختصين في الفكر الصوفي الاسلامي .

أما الكسندر بابادوبولو فقد قدم نظرية حول الرسم في الاسلام خلاصتها ان الاحاديث النبوية الشريفة المحرمة أو الناهية عن تصوير الكائنات الحية لم تؤد الى تخلف التصوير التشبيهي Art figuratif أو سقوطه في الهامشية كما يظن عادة ، بل على العكس ، كان لها فضل في تطوير فن التصوير الاسلامي على نحو متفرد لا يتعارض معها وذلك عن طريق اعتماد الفنان على وسائل تقنية وأسلوبية تبتعد بالعمل الفني عن النقل الواقعي للمرئيات ، ومن هذه الوسائل التقنية والاسلوبية مثلا ، تجنب خداع النظر والمنظور وعدم استعمال الظلال والاضواء (القولبة) وافتعال عناصر مستحيلة أو وهمية ، وكذلك استعمال الالوان بطريقة غير معقولة واقعيا كتصوير حصان

بلون وردى أو أزرق . ويجمع الكاتب تلك الوسائل جميعا تحت ما يسميه بـ « مبدأ الاستحالة » الذى يسمح للمصور المسلم أن يثبت صدق نيته في انه لا يرمى الى التشبه بالله تعالى ومحاكاة مخلوقاته الحية . ويرى ان هذه الجمالية لا تكتفى سلبيا بملاءمة الفقه الاسلامى بالاعراض عن النقل الواقعى للعالم بل هى تتجاوز ذلك لتعبر بصورة ايجابية عن الروح الاسلامية . ورغم تأكيد الاستاذ بابادوبولو بقوة على ضرورة الرجوع الى المنظومة العقائدية والروحية لفهم الفن الاسلامى ، الا أن آراءه تظل فى الواقع مرتبة بجملة من المواقف الاستشراقية المعروفة وخاصة الالحاح على الطابع التلفيقى للمفاهيم الجمالية الاسلامية ، ونفى أصالة منجزاتها الهامة وارجاعها الى أصول يونانية أو هلينستية وهو يعرض مجموع التراث الفنى الاسلامى كظاهرة نمت وتطورت وسط التحريم والزجر مما اضطرها الى خلق وسائل وحيل لتتلاءم مع المتطلبات الدينية . فتصبح جمالية المنمنمات الاسلامية مظهرا للتخاص من محاكاة الطبيعة لارضاء التحريم ، وهيئة المحراب وزخرفته حيلة ترمز الى تمثال الرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلما كان فن الرقش العربى عند دارسين آخرين ، هروبا الى التجريد تحت ضغط النهى عن التصوير والواضح أن هذه النظرة تكاد تجعل الفن الاسلامى اسلاميا بصورة سلبية أى بالاضطرار وتنقص من تأثير الاسلام الايجابى الاصيل فى الفنون (1) .

والواقع أن دراسة الفنون الاسلامية وتوضيح التصورات الجمالية التى تسند اليها تستدعى اعادة النظر فى مناهج الدراسة والمفاهيم المعتمدة ومناقشة الآراء السائدة عند أهل الاختصاص من الغربيين والمسلمين على حد سواء . كما تستوجب الاخذ فى الاعتبار الانجازات الهامة التى قدمها الدارسون الغربيون فى معالجة التراث الاسلامى وتطوير العناصر الايجابية المستندة الى نظرة علمية نزيهة ومحاولة تجديد المصطلحات المستعملة وربطها بالواقع التاريخى للحضارة الاسلامية وقد برزت فعلا بعض الاهتمامات لمناقشة الآراء السائدة من خلال البحث النظرى أو التجارب العملية قصد طرح مشكلات الفن الاسلامى فى ضوء المعطيات التاريخية والروحية والمادية للحضارة الاسلامية ونذكر منها آراء المهندس حسن فتحى والدكتور على مكية فى العمارة وعبد العزيز الدولاتلى فى تخطيط المدن وأبحاث فنية لرسامين حسين زنده رودى وشاكر حسن آل سعيد ودراسات أخرى تهتم بدراسة المدلول

---

(1) انظر : - A. Papadopoulo : L'Islam et l'Art Musulman Mazenod Paris 1976.

الروحي لمشكلات الحيز في الفنون التشكيلية والعمارة الاسلامية والى غير ذلك (2) .

ومن المهم أيضا التركيز على دراسة العلاقة النوعية والدقيقة بين المنجزات الفنية والتراث الروحي والفكري وخاصة تأثير علم الكونيات في الذهنية الاسلامية وانعكاس ذلك التأثير على الابداعات الفنية وقد بحث بعض الاوربيين في هذه العلاقة ولكنهم فعلوا ذلك من خلال الاطلاع على دراسات غريبة عن التراث الروحي الاسلامي لم تنفذ في رأينا الى أعماق هذا التراث ان لم نقل انها أساءت فهمه .

ورغبة منا في اثراء النقاش حول المشكلات الاساسية لفن الاسلامي، نطرح فيما يلي بعض الآراء التي نعتبرها من الاسس الممكنة لفهم خصوصية الفن الاسلامي وارتباطه بالنظرة الاسلامية الى الوجود وذلك في اطار الاسهام في ارساء نظرية للجمالية الاسلامية ، واعتبار أن البحث في أسس هذه الجمالية لا يزال في بدايته فان تلك الآراء لا تطمح الى أن تكون نهائية أو قطعية وانما نقدمها كمنطلق للنقاش وتعميق التساؤلات حول الموضوع :

وحدة الفن الاسلامي :

ان أول ما يشد الانتباه في فن الاسلام ، وحدته الاساسية من حيث التصور العام لعالم الاشكال والمساحات والاحجام أي للمكونات المادية لذلك الفن . فحيثما نتجه نعجب لتعدد الاشكال والتقنيات والخامات المستعملة . ولكننا نشعر لاول وهلة بالوحدة الجمالية المسيطرة على كل انجازات الذهنية الاسلامية وهذا الاحساس العميق بالوحدة هو خاصية الفن الاسلامي الاولى والبرهان الساطع على قدرته التأليفية التي هضمت كل عناصر التراث الفني البشري السابق لظهور الاسلام دون أن يفقد ملامحه الخاصة : لقد ورثت الحضارة الاسلامية فعلا أنماطا فنية بيزنطية وساسانية وبربرية وتركية وغيرها وقد يكون لبعض المساجد شبه بالكنائس الشرقية القديمة ، وقد

---

(2) انظر : ـ عبد العزيز الدولاتلي : مدينة تونس في العهد الحفصي . منشورات سيريس ـ تونس 1982 .
ـ علي اللواتي : جمالية الرسم الاسلامي ـ مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ـ تونس 1979 .

تكون قبة الصخرة فى بيت المقدس متأثرة بالمارتيريوم السورى القديم أو تكون لبعض الاقواس الاسلامية علاقة بشكل حنية طاق كسرى ، ولكن ذلك لا يغير من أصالة الفن الاسلامى شيئا ، اذ لا يمكن أن تنشأ الفنون من لا شىء ، ولكن المهم أن كل تلك العناصر قد تحورت على نحو انتخابى لتندرج ضمن صياغة خاصة تخضع بدورها لرؤية خاصة الى الوجود . وحيث أن الاسلام قد انتشر على رقعة هائلة الامتداد فقد كان طبيعيا أن يحمل طابع التعدد والتنوع والكثرة والواضح أنه لم يسع الى طمس شخصية الشعوب التى انضوت تحت لوائه ، والعكس هو الصحيح اذ فتح لها طريق الابداع والعطاء . وميز حضورها فى التاريخ . ومن المؤكد أن هذا الطابع الكونى الموحد والمتنوع فى روافده هو الذى أغفله أو تجاهله المستشرقون وهاجمه دعاة المدارس القومية ، الى درجة أن بعضهم يدعى أن عبارة فن اسلامى مفهوم غير علمى (3) وفى الحقيقة فان معنى وحدة الفن الاسلامى يفوت عليهم فرصة تصفية تركة الاسلام الحضارية لغاية ايديولوجية وتحت غطاء العلمية والعلمانية . وقد أبرزت رؤية الاسلام الخاصة الى الوجود عبر التنوع ورغم الاختلافات المذهبية الاسلامية ، ابداعات أصيلة متقاربة فى تعبيراتها الخارجية وفى انماطها الاساسية .

مفهوم الله فى الفن :

تعود وحدة الفن الاسلامى الى أن المسلمين على اختلاف خصوصياتهم القومية وتعدد مذاهبهم يجتمعون حول فكرة التوحيد المطلق لله والاعتراف له وحده بالربوبية . ومثلما تتطور الحياة المادية والروحية للمسلمين فى تناغم مستمر مع روح الوحى فان الفن يقوم بدور الشهادة المستمرة على وحدانية الله ويقع ، بصفته نشاطا ماديا ، ضمن العلاقة التى تربط الانسان والوجود بالله . وبذلك يمكن القول : إن فنون الشعوب الاسلامية تغلب عليها صفة القداسة دون أن يربطها بالعقيدة نظام طقوسى معين على نحو ما نرى فى الفن البوذى أو المسيحى مثلا . ويترك غياب برنامج طقوسى مسبقا للفنون

---

(3) انظر : Fredj Bedoui : Esquisse d'une trame conceptuelle pour analyser l'espace traditionnel musulman. Communication munuscrite - Tunis.
K.J. Kerimov : L'Art Islamique des Républiques musulmanes de l'U.R.S.S. p. 19. Communication à la Réunion de l'UNESCO sur l'Art Arabe et l'Asie, Istambul Septembre 1982.

الاسلامية اطارا واسعا للتعبير عن تلك الشهادة لله فى صيغة موحدة لا تعرف التناقض بين فن دينى وآخر دنيوى . إن مجال تلك الفنون هو العالم ورسالتها أن تطبع بابداعاتها كل الاشياء المرئية . فهى اذن تنتظم ، بصفتها مظهرا من مظاهر حياة المسلمين المادية والروحية ، حول مفهوم الله كمركز وتجد فيه مفتاح معانيها العميقة . ولذلك نجد ان جمالية موحدة فى مظهرها العام ، تطبع العمائر الدينية والمدنية وفنون الكتاب والمنتوجات الحرفية ؛ كما نجد أشكال تنظيم موحدة أو متقاربة تحكم الموضوعات الاساسية للفن الاسلامى وتميز أهم نماذج الحيز التى أبدعها المسلمون : مثل المدينة والمسجد والحيز الزخرفى أو التصويرى . ونرى أيضا أن الرقش النباتى والهندسى والمقرنص والخط العربى تتواجد فى كل مكان فى العالم الاسلامى وبصيغ متشابهة أو متقاربة . ومن الطبيعى أن تكون لهذا الفن القائم بأعباء الشهادة على وحدانية الله ، سمات أساسية واحدة تتراءى من خلالها الاهتمامات الروحية للامة ، المتجهة الى معرفته وذكره .

وتنعكس فكرة المحور هذه على العالم المحسوس ، فتتطابق مركزية الله فى العالم الروحى مع مركزية الكعبة الشريفة على الارض ، كما يتوسط المسجد المدينة ويتوسط المحراب جدار القبلة وتبدو هذه الدوائر المتراكزة كمراحل مادية وروحية فى حركة المؤمن الدائبة نحو الله . ونجد هذا المعنى الحركى الدائرى فى الطواف الروحى والجسدى للامة حول الكعبة . كما توحى به أيضا وحدات الرقش النباتية والطبقات النجمية الهندسية الدائرة حول مراكزها .

وفى هذا الاطار تشمل الحركة الدائرية حول الله كل الموجودات والاكوان ويمتد الحيز الروحى الى ما لا نهاية له . وينتج عن ذلك فى مستوى العالم المحسوس شمول الحيز الروحى للارض كلها وهكذا فان أصالة الفنون الاسلامية لا تتمثل فقط فى ظاهر بنيتها المادية ولكن بالاخص فى الكيفية التى تندمج وفقها فى اطار الحيز الروحى العام الذى تحدده الحركة الكونية التى ذكرناها . ولنتساءل كيف يتحقق ذلك الاندماج ؟

(للبحث صلة)

علي اللواتي

رؤى يوسف الكنعاني

شعر: عبدالله البلبطي

جاهرني ربّ
الى أين ستبحر قافلة الفقراء وهذا
عصر الجدب ؟
وأنا يوسف
أتشهى في مدن الدفء
وأبشر
ضجر النوء
صخب البحر
ورفيف النورس يحمل غابة زيتون
بتقاطيع الشمس
كي يولد في مدن الدفء
ولد مخضر العينين
وغزارة خفق آت
ببهاء الحق
وسنابل عام خصب
وفتون حمام

أوْضِحْ هَا الـرُّؤْيَـةَ يَا رَبِّي
مَـا لَوْنُ الـدَّرْبِ وَمَا ذَنْبِـي ؟
إنْ بَـصَّـرْتُ وَإنْ بَشَّـرْتُ ؟ وَمَـا
ذَنْبُ الفُقَـراءِ وَهَـذا عَصْرُ الجَـدْبِ ؟

* * *

فإلى أينَ سَيُبْحِرُ هذَا القَلْبُ .. الى أينَ .. ؟
أ إلى بَيْرُوتَ ؟ وَمَا بَيْـرُوتُ ؟ وَمَا وَطَنِي ؟
أفْصِـحْ . ! أفصِحْ . !
أوْضِحْ هَا الرُّؤْيَـةَ يَا رَبِّي
مَا لَوْنُ الـدَّرْبِ ؟ وَمَـا
ذَنْبُ الفُقَـرَاءِ وَإنْ رَحَلُـوا ؟
مَا ذَنْبُكَ صَبْـرَا ؟
مَا ذَنْبُ الفُقَـرَاءِ وَإنْ قُتِلُـوا ؟

* * *

أوْضِحْ هَا الـرُّؤْيَةَ يَا رَبِّي
كي أملأ وَجْهِي
بِرَحِيبِ الخَـاطِـرْ
لأبشِّـرْ ...
وَأبَشِّـرَ بِالتَّنْـزِيـلِ .. وَبِالتَّحْرِير .. وَبِالوَطَنِ ..
كي يَسْعدَ كلّ الفُقَـرَاءْ

عبد الله البلطي

من أعلام الأدب التونسي الحديث

الحبيب جاء وحده

بقلم: رشيد الذوادي

يعد الحبيب جاء وحده من أعلام الادب والفكر في تونس وأحد الذين أيقظوا الشعور الوطني وأحيوا لغة الضاد ببدائع القول وعميق التفكير وروعة البيان ٠

جمعت هذه الشخصية الفكرية الكثير من المتناقضات ، فهو رجل القلق والاضطراب ، وهو رجل المرح والصمت والعزلة ، وهو الشاعر الحساس الذى ترق نفسه للنفس الحزينة التى جفت فيها الامانى وهو القلب الصبور الذى تتنازعه العواطف المتناقضة ، وهو رجل الثقافة المتأصل ، والصيدلى الفطن المعتز بتراث العرب العلمى والذى أوصى قبل موته قائلا : «اذا مت ٠٠ ضعوا لى فى ضريحى مصحفا»٠

هذا هو الحبيب جاء وحده المولود فى القيروان يوم 28 مارس 1901 والمتوفى بتونس يوم 7 فيفرى 1967 ٠

انه أديب يمتلك ثقافة واسعة ، وشاعر يمتاز بصفاء الخيال ودقة الصور وجمال الوقع الموسيقى .. أعجب بأبى تمام والمتنبى والبحترى والمعرى،واطلع على الآداب الغربية فكان يعتز بلافنتان فى أمثاله ، وبلامرتين فى غزله المائع ، وبكرنيه فى رواياته التمثيلية لكن الى جانب هذا الاعجاب بالادب الغربى فانه ظل وفيا لوطنه ولاصالته العربية الاسلامية ٠

ولا غرو فى ذلك فالحبيب جاء وحده الذى نشأ فى بيت محافظ بالقيروان لم تغره مظاهر الحياة الغربية ، ولم تلهه أجواء باريس الصاخبة عن قضايا

شعبه ٠٠ كان دائما يفكر فى هذا الشعب ، وظل دائما يهزأ بكل ما هو مصطنع وبكل مواطن الاسفاف الاخلاقى ، وبكل المقلدين ٠٠ أو ليس هو القائل :

تأبى علي ثقافتى ويصدنى فكرى السديد
انى أروح مقلدا كل القديم أو الجديد
والحق ذا وهم الحيا ة فلا جديد ولا تليد

ورغم ما يبدو عن طبعه من رقة ولين ، فان الحبيب جاء وحده ذو شخصية حادة غضوبة ترفض الانقياد الاعمى وتأبى النفع المادى والمكسب الخسيس ٠

وسمو الشاعر النفسى جعله يقدس الاخلاص والصراحة والوفاء والطهارة ، وجعله هذا السمو أيضا نقيا كالايمان فهو لا يحفل بالمال ولا يحسن جمعه ٠٠ يقول عن نفسه :

تلاقيت بالمليون فى النوم ليلة فقيل لى : إنى ملاق حسابيه
تعرفت مشتاقا اليه فقال لى : نظرت فلم الف آسمكم فى كتابيه

هذا هو الشاعر الحبيب جاء وحده الذى تلقى معارفه الاولى فى القيروان وتربى فى بيت دينى محافظ ، فقد كان والده شاهد عدل ، وجده دباغا لا يحسن القراءة ولا الكتابة ، وأما والدته فهى ابنة الفقيه صالح الجودى قاضى القيروان ٠

حفظ الحبيب جاء وحده القرآن فى المدرسة القرآنية وشيخه فى المدرسة اذذاك كان محمد شويشية الذى قال عنه : «كنت اقرأ عنه القرآن والنحو والفقه وكل فنون الادب» (١) ٠

ومن الظواهر المميزة لشخصية هذا الشاعر الكبير هو هيامه بالادب والشعر وبالمطالعة منذ ايام الصغر ٠٠ حدثنى فى سنة ١٩٦١ ببنزرت عن خاله الجودى ، وللشاعر مع خاله الجودى ذكريات وذكريات طريفة ، فهو الذى يمنع

---

(١) راجع حديث مع الشاعر اجراه الاديب عبد الرؤوف الخنيسى بجريدة الصباح فى ١٩٦٥/١٠/٧ ٠

عنه في بعض الاحيان كتاب «العمدة» لابن رشيق القيرواني (2) لكن شاعرنا الحبيب جاء وحده يقذفه بشر خفيف :

فجد لي بها طوعا والا فانني أناديك منذ اليوم : (يا خالي الجودي)

وخشي الخال على عقيدة ابن اخته فمنعه من الاتصال بمبشر مسيحي انقليزي ومما ذكره لي أن خاله الجودي جلده ذات يوم حتى لا يعود الى محادثة هذا المبشر الانقليزي .

وبعدما أحرز الحبيب جاء وحده على الشهادة الابتدائية قبل بالمدرسة الصادقية في عام 1916 وفي هذه المدرسة تعرف على الحبيب بورقيبة ، والطاهر صفر ، وعثمان الكعاك والمختار المملوك وعبد العزيز العروي ومحمود القرمازي وغيرهم .. ومن ذكرياته عن أيام دراسته في الصادقية ما أورده الاديب عبد الرؤوف الخنيسي :

« قال الشاعر الصيدلي بصوت خافت ذات يوم : ايقظنا قيم المدرسة الى قسم المراجعة ، أما بعضنا فخير النوم وعدم الامتثال والقيم اذ ذاك يسمى – الشاف خليفة – لكن زميلي في الدراسة الرئيس الحبيب بورقيبة امتنع الا بجهد جهيد .. واحتدم القيم وماج وهاج فقال : سأقدم تقريرا فيكم فاخذت قلما على الفور وقدمت قصيدا للمدير جاء فيه :

أخليفة يا طيب الانفاس ان كنت حقا من بني العباس
فتمثلن بعفوهم واصفح لنا تهدى المسرة بين كل الناس
واذا اقترفنا ثانيا فابطش بنا بطش الشديد الفاقد الاحساس
هذا كلامي قلته لجنابكم خذ ما ترى من رحمة أو باس

فمزق التقرير وقال : «لافض فوك» (3) .

---

(2) الحسن بن رشيق : ولد بمدينة المحمدية المعروفة الآن بالمسيلة وتربى في القيروان وحاز رئاسة أدباء عصره بعدما التحق بخدمة الامير المعز بن باديس توفي سنة 456 هـ (1064 م) ومن مؤلفاته (العمدة) و (أنموذج الزمان في شعراء القيروان).

(3) الصباح : بتاريخ 1965/10/7 .

وتخرج الحبيب جاء وحده من الصادقية في جوان عام 1921 ، واثر هـذا النجاح عين مدرسا للغة الفرنسية في المدرسة العرفانية بباب السويقة بتونس وفي هذه المدرسة كون جيلا من التلاميذ مازالوا يعتزون بأياديه عليهم شأنه في ذلك شأن المربين الصادقين الذين تحملوا المشاق في سبيل أداء الواجب نحو الاجيال ومما يفرده الاديب الهادي العبيدي عن المربي الحبيب جاء وحده في هذه الفترة اذ يقول :

«عرفت الاستاذ الحبيب جاء وحده في المدرسة العرفانية التابعة للجمعية الخيرية الاسلامية الواقعة بنهج الورغي من حي باب السويقة وكنت فيها تلميذا نصف داخلي حيث كنت يتيما وفقيرا وكان الاستاذ الحبيب يدرس الفرنسية هناك بعد أن أحرز على ديبلوم المعهد الصادقي وكان المرحوم الاستاذ الطاهر صفر (4) مكلفا يومئذ بادارة المدرسة وهو زميله وقد أحرز مثله على ديبلـوم المعهد الصادقي ايضا ، وكان الفقيد الحبيب لا يقتصر على اعطاء دروسه في اللغة الفرنسية وينصرف ، بل كان يجمعنا في فترات متقطعة ليعلمنا الاناشيد الوطنية من شعر الرصافي وغيره .. يعلمنا لفظا ولحنا وينفعـل معهـا عند التعليم فيظهر عليه الحماس فأحببناه لهذه الصفات ، ثم بعد مدة جذبتني ناحية لا أدري هل استنجبني أم حببني اليه هدوئي وانعزالي عن هرج ومرج التلاميذ عند الخروج من القسم للراحة ، وأخذ يلقنني بحور الشعر العربي حسب النصـوص المنظـومة عليهـا وكـان ذلـك أول درس تلقيتـه في العـروض والقوافي » (5) .

وفي أوائل عام 1925 سافر الى مدينة (ايفرو) بفرنسا ليستكمل ثقـافتـه هناك .. رحل مع الاستاذ الطاهر صفر الى فرنسا حيث توجه الطاهر صفر الى

---

(4) الطاهر صفر : من مواليد المهدية يوم 12 نوفمبر 1903 وتوفي بها يـوم 9 أوت 1942 كان من المناضلين الصادقين الذين أسسوا الحزب الدستوري الجديد في 2 مارس 1934 بقصر هلال وقد انتصب مدافعا عن هذه الحركة جاعلا من قلمه لسانا لها حيث كتب في أكثر من صحيفة ومجلة تونسية وظل طيلة حياته يعاضد كل المشاريع الاقتصادية والثقافية ومن أشهـر مؤلفاته كتابه «الاقتصاد التونسي» الذي ظهر في سلسلة كتاب «البعث» في الخمسينات .

(5) الصباح : بتاريخ 1968/2/29 (مقال في ذكرى الرجل العظيم الذي علمني الوطنية والادب أستاذي الحبيب جاء وحده) بقلم الهادي العبيدي .

الحقوق والحبيب جاء وحده الى الطب ٠٠ تعلم الطب أولا ثم انتقل الى دراسة الصيدلية وفي باريس ظل دائما يحن الى وطنه والى اجواء الصادقية التي كانت مركزا هاما من مراكز الثقافة التونسية فاستمع اليه ليحدثك وهو بفرنسا عن نجاح أصدقائه في الصادقية :

الصادقية مركز العرفان	**ومحط رحل الامن والايمان**
فرحت بفوز أفاضل هم أربع	**من بعد عشر نخبة الشبان**
وهم الحبيب أبورقيبة من سما	**بذكائه عن جملة الاقران**

ويحرز الحبيب جاء وحده بعد سنوات من الكد والجد على شهادة الصيدلة فيلتحق بماطر ويفتح صيدليته هناك ، ثم انتقل الى بنزرت التي قضى فيها عدة سنوات وكانت له مع أصدقائه هناك ذكريات عزيزة ونشاطات واسعة وقد نظم قصائد كثيرة في معارك هذه المدينة وفي بطولات أبنائها ضد القهر والفرنسة ٠

الحبيب جاء وحده الوطني :

لفت الحبيب جاء وحده أنظار الناس بمواقفه الشجاعة وأعماله الخيرة واشعاره التي نظمها طيلة اربعين سنة أو تزيد (6) :

لكن أين تبرز مواقفه الوطنية ؟

في رأيي تبرز مواقفه الوطنية خاصة في ثلاثة مواقف هي :

اولا : في تأديته لرسالته التربوية وحرصه على تلقين المعرفة للتلاميذ في الفترة التي درس فيها بالمدرسة العرفانية بباب السويقة فيما بين سنوات (1921 و 1925) ٠

ثانيا : في التحاقه بحركة الدكتور محمد علي الحامي عندما كان يدرس في المدرسة العرفانية بتونس في عام 1924 فقد كان المرحوم الدكتور محمد علي يعقد الاجتماعات المتوالية لتأسيس (جمعية التعاون الاقتصادي التونسي) في

(6) في الادب التونسي : محمد الحليوي ط تونس 1969 ص 160 ٠

سنة 1924 وكان من بين الرجالات الذين التفوا حوله : الحبيب جاء وحده والطاهر صفر والعربي مامي والطاهر بوتوريه ، والطاهر الحداد (7) .

والملاحظ انه من يوم مجيء الدكتور محمد علي الحامي الى تونس كان بعض المثقفين التونسيين يبحثون عن عمل اقتصادي يفيدون به أمتهم .

وبعد التفكير العميق اتجهوا الى فكرة تأسيس «جمعية التعاون الاقتصادي التونسي» وقصروا عمل هذه الجمعية في البداية على التجارة فقط لان الصناعة تحتاج الى رأس مال كبير أكثر من التجارة .

ويذكر الطاهر الحداد في كتابه «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» معلومات هامة عن هذه الجمعية التعاونية وعن أهدافها وعن مؤسسيها (8) .

والملاحظ أن الشاعر الحبيب جاء وحده ساهم في تحرير القانون الاساسي لتلك المؤسسة التي لم تبرز الى حيز الوجود بسبب انصراف محمد علي الحامي الى بعث الحركة النقابية الاولى بتأسيس جامعة عموم العملة التونسيين سنة 1924 .

يذكر الاستاذ الهادي العبيدي الذي بدأ في سنة 1924 يتسلل عند خروجه من المدرسة الى اجتماعات الدكتور محمد علي الحامي : «كان الفقيد الحبيب يلحظني بين المجتمعين فيبتسم لي من بعيد بدل أن ينهرني ويطردني من قاعة الاجتماع بوصفي طفلا لم يتجاوز عمره الثالثة عشر فيزيدني هذا التشجيع الصامت منه اكبارا له وحبا » (9) .

---

(7) الطاهر الحداد (1901 – 1935) أصله من قرية فطناسة قرب حامة قابس درس بالزيتونة وأحرز على التطويع عام 1920 ودخل مدرسة الحقوق ومنع من نيل شهادتها لافكاره التحريرية وله مواقف بارزة في الحركة العمالية التونسية عام 1924 ومن مؤلفاته : «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» و «امرأتنا في الشريعة والمجتمع» .

(8) انظر «العمال التونسيون وظهور الحركة النقابية» للطاهر الحداد ط تونس صفحات (42 – 53) .

(9) الصباح بتاريخ 1968/2/29 .

ثالثا : فى اهتماماته بقضايا وطنه :

ونلمس هذا الاهتمام فى القصائد الوطنية التى نظم منها الكثير اذ رغم ما ضاع من شعره نتيجة للتلف وللتنقلات وللحرق ، اذ أحرق جلها الجيش الفرنسى فى معركة الجلاء عن بنزرت عام 1961 ٠٠ قلت بالرغم من كل هذا نجد له قصائد كثيرة خلدت مواقف الشاعر الشجاعة وأبرزت صدق وطنيته.. يقول فى عام 1919 مخاطبا زملاءه فى الصادقية :

الى م منـاامكـم يـا راقـدون الى جنـب التـوانى مخلـدينـا
وانتـم بالـدمـار مهـددون فقوموا وانصـروا وطنـا ودينـا
ولا تضحوا من المستعبدينـا
كفى فاليوم لا يجـدى سكـوت وليـس يخفينـا سجـن مقيـت
ليحيى موته الوطن المصونـا

ويتوجه الى الشعب فى عديد المناسبات لكى ينهض ويثور ويكسر القيـود يخاطبه قائلا :

أفنيـت عمـرك راضخـا مقهـورا وغدوت فى هذى الحيـاة حقيـرا
ومسخـرا بين الـورى تسخيـرا أفقـدت دون العالميـن شعـورا ؟
ان كنت شهما فاطلب الدستورا ٠٠

والحبيب جاء وحده كثيرا ما تحدث عن المعارك الوطنية التى خاضها الشعب التونسى فقد نظم فى احداث 9 افريل 1938 ٠ وفى احداث ، النفضية ، وفى معارك الجنوب ، وتحدث عن المقاومة فى جبل « أشكـل » كما رثـى الزعماء والقادة ٠٠ رثى محمد على الحامى ورثى فرحات حشاد والهادى شاكر والمنصف باى والحبيب بوقطفه ، ومجد بطولات مدينة بنزرت فى عام 1961 ونظم قصائد كثيرة فى مدح الرسول وفى تمجيد بطولات العرب والفاتحين ٠٠ أو لم تستمع اليه حينما تحدث ذات يوم قائلا :

يـا تونسى أقبـل على سير العلوم فهى السلاح اذا نما عـدد الخصـوم
واطلب حقوقك لا تخف ظلم الغشوم لتكـون شهـمـا بالحيـاة جـديـرا
يا تونسى قم واطلب الدستورا

وسجل التاريخ موقفا وطنيا آخر قام به الشاعر الحبيب جاء وحده فى الفترة التى اتجهت فيها الحركة الوطنية التونسية الى المطالبة برغائب الشعب على اثر تأسيس الحزب الدستورى القديم عام 1920 ، اذ تشكل وفد فى هذا الحين يضم اربعين شخصية تونسية وتمكن هذا الوفد من مقابلة الباى محمد الناصر فى 18 جوان 1920 فكان يوما تاريخيا قدمت فيه مطالب الامة ، وأعلن يومئذ الباى تأييده لها لكن سرعان ما سعت الاوساط الاستعمارية الى التفريق بين الشعب والباى خصوصا بعد اقتبال وفد الاربعين من طرف المقيم الفرنسى (لوسيان سان) ورفضه طلبى المجلس التفاوضى والحكومة المسؤولة لانهما يتعارضان مع وجود الحماية .

أوهم (لوسيان سان) بواسطة جريدة (الديباش تونزيان) الرأى العام التونسى أن الباى ضد دستور البلاد ومعارض فى اقامة حكم نيابى بها وما أن علم الباى بذلك حتى غضب وتنازل عن العرش بعدما اقال الوزير الاكبر الطيب الجلولى واشتهرت قصة تنازل الباى عن العرش هذه بحادثة (5 افريل 1922) وقد تباينت الآراء حول قصة تنازل الباى عن العرش لكن اتضح فى النهاية انها كانت مناورة حيكت بين القصر والمقيم العام ؛ اذ الباى تراجع فى قراره بعدما أخذ وعدا عرقوبيا من الحكومة الفرنسية التى كان يستعد رئيس جمهوريتها (ميلران) لزيارة تونس فى أواخر ذلك الشهر .

فى هذا الجو المضطرب أقامت جمعية الطلبة فى باريس حفلا حضره الطلبة ومجدت فيه موقف الناصر باى البطولى وكان ممن حضر هذا الحفل الشاعر الحبيب جاء وحده الذى القى فى هذا الحفل قصيدا حلل فيه أبعاد واقعة 5 افريل 1922 وكان ينظر الى هذه الواقعة غير نظرة بقية الطلبة لان الناصر باى لو كان صادقا فيما اتخذه لما تراجع عن قراره بهذه السرعة فهى مناورة بلا شك كان هو نفسه أحد اطرافها والا فلماذا هذا الاستخذاء والجبن والتردد ؟ .

فلنستمع الى ما قاله الحبيب جاء وحده فى هذا الحفل :

ففيه (10) باى تونس قد تخلى — والقى التاج عن رأس شرود
وقال مجاهرا من دون خوف — فاودى بالسفارة والعميد
تراجع عن طلابه باضطراب — وباء من الغنيمة بالركود
فقام كأنه أسد هصور — وولى وهو كالهر الطريد

(10) شهر أفريل .

ولكن شعب تونس ليس ينسى	وان أبدى الخنوع لدى الوعود
كمثل النار غشاها رماد	فيحسبها المغفل فى خمود
ولكن ان بدا أدنى زفير	تهيج فيصطلى ما فى الوجود
اذا نادى من «المرسى» مناد	أجاب ملبيا من فى «الجريد»

وهكذا فما إن مرت أيام عن هذه الواقعة حتى زار رئيس جمهورية فرنسا تونس وأعلن أن فرنسا ستبقى فى شمال افريقيا الى الابد ٠

وبهذا التصريح نزل الستار على هذه المهزلة ٠

ويتعرض صديق الشاعر المختار السلامى الى جوانب كثيرة من حياة هذا الشاعر فيذكر أن الشاعر أسمعه معظم ديوانه كما سمح له بتدوين بعض قصائده لان الشاعر الحبيب جاء وحده قلما ينشر أشعاره فهو بخيل فى هذه الناحية يحتفظ به لنفسه وينشره بين خلانه كلما كانت الظروف تسمح بهذا وحسب ظروفه النفسية (11) .

قيمة شعره :

قد يتساءل بعضنا أين هو شعر الحبيب جاء وحده ؟٠٠ وما هى قيمته الفنية ؟

وللاجابة عن هذين السؤالين نقول : ان الحبيب جاء وحده شاعر دون شك لكن معظم أشعاره ضاعت بسبب التنقلات والاهمال ٠٠ ولكن أين هو قليله ؟٠٠ أجابنا الحبيب جاء وحده نفسه عن هذا السؤال : «القليل هو ما تبقى من شعرى دعه يحيا فى قلبى وبين جوانحى فأنا أحب العزلة وأنشد الصمت وهو مذهب أعتنقه من قديم ٠ » (12)

يتضح من كل هذا أن ما تبقى من شعر الحبيب جاء وحده هو قليل ٠٠ لقد نظم فى كل الاغراض السائدة فى عصره وأشعاره كانت تصدر عن عفوية بعد انفعال الشاعر بما يحدث فى مجتمعه ٠

وتعود الحبيب جاء وحده أن ينشد أشعاره على كل صديق يلتقى به أو يزوره ٠٠ كان أول همه هو أن ينشد آخر ما نظم لكل من يلقاه من معارفه ،

---

(11) الصباح : (1969/2/20) دراسة بعنوان : «ذكرى حبيب» بقلم الاستاذ محمد المختار السلامى ٠

(12) انظر فى «الادب التونسى» لمحمد الحليوى ص 160 ٠

يروى عنه صديقه الشاعر سعيد أبو بكر (13) هذه النادرة : قال : «طلبته يوما بالهاتف لامر أكيد فاغتنم فرصة اتصاله بى وطلب منى الاستماع لقصيدة لا تقل أبياتها عن المائة بيت ، يريد أن لا يحرمنى من سماعها ، واقترحت ارجاء ذلك الى مرة أخرى يطلبنى هو فيها بالهاتف .. ولكنه تفطن للحيلة وأبى الا الشروع فى القراءة وعرفت أن المسألة ستدوم ساعة على الاقل فاغلقت هاتفى » . (14) .

ان معظم اشعاره تصور سمو نفسه تصويرا صادقا وتعبر عن تجاربه وآرائه وتصور أيضا سخريته ونقده للاوضاع الاجتماعية والسياسية فهو مثلا يقول لما ولى مصطفى الكعاك رئاسة الحكومة فى عهد الحماية :

أيحسن دولة الكعاك صنعا ... فيرجع من مهمته بقفر
على انى تخامرنى شكوك ... وأحسب صنعه مطرا بقفر
وهل يرجى من الكعاك الا ... كعيكات مدورة كصفر

وهو يقول فى تصويره للظلم الاجتماعى الذى عاناه الشعب فى عهد الحماية المشؤوم :

لا تلوموا الجياع عن نهب خبز ... وارتكاب لكل جرم ورجس

ومن الظواهر المميزة لاشعاره فى رأيى هى قوة ايمانه وتعلقه الشديد بالقرآن الكريم .

أما القيمة الفنية لهذا الشعر فهى فى رأيى تتمثل فى حرص الشاعر على أن تكون أشعاره سهلة ليس فيها تأنقا او استطرادات أو صورا بلاغية تبعد الشعر عن النفس ويتمثل هذا خاصة فى قصائده الوطنية والدينية .

أما اخوانياته فهى مجرد منظومات هزيلة جاءت فى صور كاريكاتورية لا تثير في نفس المستمع أى حيوية ولا يمكن أن نعدها من الشعر الجيد في شيء.

رشيد الذوادى

---

(13) سعيد ابو بكر : (1899 – 1948) من مواليد المكنين اصدر ديوانين من الشعر «الزهريات» و «السعيديات» وهو صاحب مجلة (تونس المصورة) وقد نشر فيها الحبيب جاء وحده بعض قصائده راجع «ادباء تونسيون» لرشيد الذوادى ط تونس 1972 صفحات (28 – 45) .

(14) «فى الادب التونسى» ص 161 .

قصيدتان للزيتون ... والبحر

شعر: أحمد فضل شبلول

1) مذبحة الزيتون

العالمُ يخرجُ من قلبيِ الآنْ ،
مشتعلاً برماد الفتنةِ ..
منكفئا بجراح الأمةِ .
أخرجُ منه ، ويخرجُ مني

* * *

العالم يبعدني ..
أدخلُ فيه ، فيذبحني
العالم - في الشرق الأوسط - يَطرُدُني ..
والدباباتُ هنا تترصدني ،
والقهرُ يحطم جُدْرَانَ عروبتنا
والخوفُ تمطى فوقَ أريكةِ لبنانْ

* * *

آهٍ يا لبنانْ !
العالم يخرجُ منْ قلبيِ الآنْ .

كنت أحدثُ نفسي ..
عنْ مؤتمرِ القِمّهْ !؟
كيف يداوي جرحَ الأمهْ ؟
لأقولَ : أنا عربي .

* * *

كنتُ أحدثُ نفسي
عَنْ مذْبحةِ الزيتُونْ
لكنْ العالمَ يَخْرجُ منْ قَلْبِي الآنْ
يخرجُ منفلتا من تحت البركانْ
يتركني وحدي للطوفانْ

* * *

آهٍ يا زيتون !
هلْ نحن نعود الآنْ .. ؟
الشرقُ الأوسط يطردُني
ومدافع « شارون » تداعِبُنِي
كيف أحدث نفسي
عنْ مؤتمر القمهْ ! ؟

* * *

2) ويضيع البحر

دَعُوا هوى ضَيّعَهُ الأحبَابُ مُذْ لَيْلٍ طويلْ
فاليومَ خمرٌ .. وغدا ؟ !
كم ضيعتْ ضربةُ موجٍ جُزُرًا ! ؟
كمْ غَيّبَتْ قطرةُ ماءٍ سُفُنَا ! ؟

فاليومَ خمرٌ .. وغدا ليس بِبحرْ
ومثلما يعودُ حُزْنُ المَوْجِ مختارًا إلى قلبي ..
تعودُ قطرةُ الفنا الأولى إلى شريانِ هذا البحرْ .

★ ★ ★

أنا الذي ضيّعتهُ ..
أنا الذي غيّمتُ هذا الفجرْ
أنا الذي غرّبتُ هذي الشمس عَنْ شطي
ثمّ اقتنعْتُ بالزّبَدْ .
رضيتُ بالنار التي سجّرتها
رضيتُ بالدخانِ والغيومْ
وما عرفتُ أن بحرنا أضيءَ ساعةَ العَدَمْ
فانتبهتْ كلّ القبورْ
وأخرجتْ ما في بطونها .
وما عرفتُ أن موجنا يحجُّ حجّةً عند اكتمالِ كلّ بدرٍ في البُحُورْ
أوْ أنّ حزْنَنَا يَطوفُ حوْلَ قُبّةِ السماءِ ساعةَ الأفولْ

★ ★ ★

رضيتُ بالمساء لي جراحا ..
وما رضيتُ بالصباحِ موْطنا مُباحا
أنا الذي ضيّعتُهُ ..
أنا الذي غيبتهُ
فلا تعاندُوا هوًى ضيّعهُ الأحبابُ مُذْ ليلٍ طويلْ
بلْ عالِبوا صبا
أضاعَ درب حبِّه...

احمد فضل شبلول
الإسكندريه

ملف الكتابة السينمائية

الوجه الآخر للقمر

بقلم : محمد المنار جبنات

تـوطئـة :

بدهشة ممزوجة بالاستياء الشديد قرأت فى احدى الجرائد الاسبوعية الصادرة ببلادنا تصريحا يزعم فيه صاحب مؤسسة سينمائية **أن ليس فى تونس كاتب سيناريو تلفزى واحد** ، لذا اعتمد على العشرات من منتحلى هذه الكتابة من غير التونسيين ، لانه حسب قوله لا يريد أن يتوقف على الانتاج بعد أن وضع مليارا سادسا لتنمية هذا الانتاج ٠٠ وقد بادرت عملا بقول الامام على كرم الله وجهه برد الحجر من حيث أتى ، وفندت فى ركن « يوميات » بجريدة العمل الغراء هذا الزعم ٠٠ وعمدت للتدليل بهذه التجربة ـ لا لصاحب هذا التصريح الذى أساء الظن بمواهب من استضافوه وأعانوه على استثمار ملياراته ـ بل ، ولكل من تسول له ظنونه وأوهامه ـ حتى من التونسيين الذين فى قلوبهم مرض مركب الشعور بالنقص ـ ان بين ابناء هذا البلد المعطاء الذى اخرج للساسة العرب «بورقيبة» وللفكر العربى «مزالى» من أقدم ـ قبلى ـ على الكتابة للسينما ، وقد سلكت نفس الدرب وان لم يتح لى الحظ فرصة الكتابة للسينما الا على الورق ، وظل الفيلم أبعد منالا من القناعة بالنسبة الى أصحاب هذه السوق المظلمة التى تلزمها انارة قوية لالتقاط ما تدور فيها من وقائع تخجل الاحتكار الذى أودى بالسنما المصرية سنوات

(*) الحقوق محفوظة للمؤلف تحت اشراف مجلة «الفكر» ٤٣ نهج دار الجلد ـ تونس ص ٠ ب : 556 تونس ٠

فى حضيض رقصة البطن ، وكاد يؤدى بالسينما الامريكية نفسها فى حضيض «الواستيرن» لو لم تقع الالتفاتة لسنيرة روايات وقصص همنغوى وفولكنر وكالدويل وشتاينبك واضرابهم ٠٠ فهل لم تكن لمصر أفلام «تدبج» القصة والرواية ؟ أم ان السينما لا تنفع فيها ديباجة ؟ وأنها أغرت أصحاب الديباجات بأموال الخليج العربى المرصودة للسينما ، فأسالت ريقهم فلحسوا من الاقلام سر الديباجة ، وأخذوا يزاحمون حراس الاستديوهات زحام اللئام على موائد الكرام ليقاسموهم لقمة أشعب ، ولو كانت جزاء عن اسفاف يؤذى النـاس فى بيوتهم !

شخصيا ـ كنت وما زلت ـ أقدر جهابذة مصر فى الادب وسائـر فنـون الثقافة ، لكن لم أقر لهم بتفوق أو وصاية على الكتاب العرب (مغاربة ومشارقة فى الفكر والثقافة والادب) لانى لا أؤمن بجغرافية المواهب والكفاءات وتصديرها وتربيتها فى حقوق الارث والاختصاص !٠٠ ولئن عمد المضللون من المستكرشين الى غلق الباب دوننا ، لانه لا يوجد فى سوق السينما ولو «نزحت» اليوم الى تونس كاتب سيناريو واحد ، فلا أقل من أن نطرقه عليهم لنمد لهم هذا الملف الذى حبتنى مجلة الفكر الرائدة بوضع أول أوراق فيه عن تجربة الكتابـة للسينما ٠

الوجـه الآخـر للقمـر

(سينوبسيس مسلسل تلفزى)

أ ـ هدف المسلسل :

● أخلاقيا وتربويا :

ـ ايثار الخير على الشر ٠

ـ مقاومة الانحراف .

ـ التمسك بالقيم الفاضلة ٠

ـ التبصير بعواقب الاعتداء والعدوان .

ـ بيان محاسن انتهاج السلوك القويم (بدون توجيه مباشر ، مع الابتعاد عن الوعظ والارشاد) ٠

ب ـ مضمونه :

● زمنيا :

ـ تدور وقائع المسلسل فيما بين سنتى 1945/1975 ·

● مكانيا :

ـ تجرى الاحداث فى الاحياء العتيقة بتونس العاصمة وباحواز تونس السياحية (قرطاج ، سيدى أبى سعيد) وببرج سيدى الرايس ، وبمصيف «عين دراهم» الجبلى (شمال شرقى تونس) ، وباحدى واحات الجنوب التونسى وبايطاليا (رومة ، فينيسيا) ·

● الحدث الرئيسى :

ـ قصة نشأة نجمة سينمائية ·

ج ـ هيكله الموضوعى :

● اجتماعيا :

ـ اعطاء صورة عن الحياة والمجتمع التونسى فيما بين سنتى : 1945 / 1975

ـ ابراز بعض التقاليد والعادات من خلال تصرفات أسر أبطال المسلسل ·

● سلوكيا :

ـ مصارعة الفقر والخصاصة ·

ـ التهافت على الجشع والاثراء الفاحش ·

● سياسيا :

ـ ابراز أضرار الحرب العالمية الثانية التى لحقت تونس ·

ـ التعريف بأهم مراحل الكفاح التحريرى ، بقيادة بورقيبة ، والاحراز على النصر والاستقلال ·

● علميا :

التركيز على معطيات :

ـ علم النفس التحليلي : فى تحليل نفسيات **الابطال من خلال سلوكهم** ، ومن خلال تشخيص طبيب الامراض النفسية (**أحد أبطال المسلسل) لازمة** غياث (بطل المسلسل) النفسية ، واصابته بأعراض مرض « *البارونيا* : **(مرض التخيل وابتعاث الوهم)**» ٠

ـ علم النفس الجنائي : من خلال تقييم **رجال الشرطة والقضاء لسلوك** «سديرة» (أحد أبطال المسلسل) **وعصابته واجرام ابنه عمر (بطل المسلسل) واضطهادهم** لكريمة (بطلة المسلسل) **ويتمحور التقييم حول (الاحتيال ، والتزوير** ، والشعوذة ، والسرقة ، والسطو ، والعنف ، والقتل ٠٠٠)٠

ـ **علم التصوف** : **من خلال مناقشة مفهوم الولاية الدينية وكرامات الاولياء الخارقة للعادة** (عند التعرض لتظاهر الحاجة صالحة بالصلاح **وتقييم كتيب : «الحقيقة** والمصارحة فى سيرة ومناقب الحاجة صالحة» ٠٠)٠

د ـ القصة (*) (تسلسل الاحداث ، وتجزئتها فى حلقات) (**) ٠

(*) حقوق تأليف هذا المسلسل محفوظة للمؤلف ، ويحتوى على : 1) خلاصة حلقات المسلسل (أى هذا السينوبسيس) 2) **سيناريو الحلقة الاولى منه** فى جزئين : أ/ المناظر والادوار والمؤثرات الصوتية ٠ ب/ **الحوار** ٠ ـ ٠ وذلك لتؤخذ كأنموذج لما ستكون عليه بقية الحلقات . وتنشر مجلة « الفكر » هذه الصفحات ـ فى نطاق الالتزام برسالتها ـ ، ابتغاء رفع الاصفاد الاقليمية عن الفن السابع ، واثبات أن للادباء التونسى فى مؤلفات التربية والتعليم ، **ونظمت له بالتعاون مع** به مجلة « الفكر » حين فتحت من قبل ملف اعتماد الادب التونسى فى مؤلفات التربية والتعيم ، ونظمت له بالتعاون مع اتحاد الكتاب التونسيين لقاء بالمركز الثقافى **الدولى بالحمامات** ، وخصصت لاشغاله عددا خاصا نشرت فيه ما دار بالملتقى ٠

(**) يحتوى هذا المسلسل على 45 حلقة ، وبالامكان عند انتاجه **أن يدوم عرضه** يوميا لمدة شهر ونصف ٠٠ كما ان بالامكان اختصار احداثه فى 30 حلقة ٠

الوجـه الآخـر للقمـر

١٠ * فى مكتب صغير باحدى الادارات يجلس غياث مع زميله «على» .. يخطر له فجأة ـ بدافع السأم ـ أن يطلب اجازة سنوية لمدة شهر .. يملأ الاستمارة الخاصة بذلك ، يسلمها الى الحاجب فيأخذها الى المدير ، فيوافق عليها ، فيدهش غياث وزميله من تساهل المدير الفجائى ٠

وفى الطريق يلتقى غياث ـ صدفة ـ بصاحبه سالم : رئيس تحرير مجلة أسبوعية ،فيعهد اليه حسب العادة بكتابة تحقيق عن المشعوذين ٠ ويخبره بأن ممرضة شابة جميلة تدعى «بثينة» ترغب فى معرفته ، ويواعده على اللقاء ليعرفه بها ويضبط معه عناصر التحقيق ٠

يفاجأ غياث حين يدخل شقته بقطع التيار الكهربائى لعدم تسديده فاتورة الاستهلاك ، ويسلمه حارس العمارة إخطارا من المالك بالخروج من الشقة لعدم الخلاص ٠

يقضى غياث ليلته على أسوأ حال ، ويفشل فى استدانة ما يفك به ضائقته المالية ٠ /

٠٢ * يتذكر غياث موعده مع رئيس تحرير المجلة فيخف اليه ٠

تكتظ مقهى «المرابط» بالسائحات الجميلات ، ويقترب من غياث طفل يتسول بيده كتيب قديم ممزق بعنوان : «الحقيقة والمصارحة فى سيرة ومناقب الحاجة صالحة» فيشتريه منه ويتشاغل بمطالعته ٠ ويستسمحه كهل أنيق فى الجلوس بجواره ، ويقدم نفسه اليه على أنه سيناريست فيبتهج غياث بمعرفته وتقبل شابة جميلة (نجمة سينمائية تدعى «كريمة») فيستقبلها نوح مرحبا ويعرفها على غياث ، فتلاحظ الكتيب الذى يطالعه ، وتناقشه فى «كرامات الاولياء» وتهتم بانشغاله بانتظار صاحبه الصحفى «سالم»،وسؤال النادل عنه. وتختلس بطاقة بها عنوانه ٠٠ ويقبل المخرج «فائز» فيشير اليها مناديا ، فتودع غياثا وتسرع مع نوح اليه ٠٠

/ علامة انتهاء الحلقة : (هذا التقسيم مبدئى ، وسيقع تعديله وفق كثافة الاحداث عقب الاتفاق على انتاج المسلسل ، والشروع فى أعداد حلقاته) ٠

ييأس غياث من مجيء صاحبه فيبارح المقهى قانطا ، ويسقط الكتيب منه – بدون ان يشعر – وهو يرجع أدراجه فى الليل الى مسكنه . /

3. * يقرر غياث – تحت وطأة الضائقة – عدم مبارحة مسكنه ، ويفتقد الكتيب فلا يجده ، فيتخلى عن اعتماده فى كتابة التحقيق ، ويقلب كتبه المتراكمة فى المعبر بحثا عن الكتب المتعلقة بالمشعوذين . ويهبط الليل فيضيء شمعة الكتيب فلا يجده، فيتخلى عن اعتماده فى كتابة التحقيق، ويقلب كتبه المتراكمة حين يرى أمامه كريمة .

تزعم كريمة لغياث بأن صديقه الصحفى «سالما» هو الذى دلها على بيته ، وترثى لحاله ، ويعثر وهو يطوى كنشه على ورقة مالية كبيرة سبق له أن دسها فيه ونسيها فيفرح بها ، ويسرع الى شراء ما يستضيف به كريمة ، وتعد له كريمة العشاء وتغريه بالكتابة الى السينما . وتروى له قصة نشأتها ليعد عنها سيناريو . وتتعهد له بحمل فائز على اخراجه ، وتقدم له مبلغا ماليا ليفك ازمته .

بعد يومين ، تودع كريمة غياثا ، وتخرج فى الليل ناسية وشاحها ، ويتفطن اليه غياث على الاثر ، فيسرع الى الالتحاق بها . فيجد الحارس قد أغلق باب العمارة ورقد . ويستيقظ الحارس فزعا ، فيسأله غياث عن كريمة فينفى خروج أية امرأة من العمارة . /

4. * يعود غياث مذهولا الى مسكنه ، ويتذكر الحارس انه نسى اخراج برميل الزبالة فيفتح الباب ويخرجه .

يظل غياث دهشا كلما تذكر اختفاء كريمة . وتتضاعف دهشته حين يجد أن هناك شبها كبيرا بين نشأتها ونشأة الحاجة صالحة .

[يختطف قاطع طريق (اسمه فى الكتيب : سديرة) شاذلية : زوجة رضوان – وهى على وشك المخاض – لتخلف خادمتها «دعد» ..

تعرف سديرة على «دعد» حين استأجره رضوان زوج شاذلية ليقطع الحطب فى فناء داره ، فأغواها ، وفرت معه ، فأسكنها كهفا فى جبل «سيدى الرايس» واتخذها خادمة لعصابته ، وعبث بشرفها ، واضطهدها ، وماتت حين عسرت عليها الولادة بعد أن وضعت طفلا .

تغير طائرات الحلفاء فجأة على فيالق النازيين المعسكرين بالقرب من الجبل ، فترتعب شاذلية ويأخذها المخاض ٠ هي متمددة بجوار جثة «دعد» ٠ /

٥ ٠ * يحضر «سديرة» عجوزا تسكن كوخا فى سفح الجبل تدعى «سكينة» اجتنبها الناس اتقاء لشرها ولتعاطيها السحر لتولد شاذلية ، وتضع بنتا ، فيهم الشقى بقتلها ، فتنقذها سكينة ٠

تقبل شاذلية ابنتها وتلبسها عقدا به قلب ذهبى نقش زوجها على ظهره الحرفين الاولين من اسمها واسمه .

تأخذ سكينة معها ابنة شاذلية الى كوخها وتربيها وتسميها صالحة ٠

تنشغل الشرطة بالحرب عن حفظ الامن ، ويفشل رضوان فى الاستنجاد بالشرطة للبحث عن زوجته المخطوفة ٠

يحبط سديرة محاولات فرار شاذلية منه ، وتجهض بدورها حملها منه ٠

تضع الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وتنفى فرنسا « المنصف باى » ويعود بورقيبة بعد ان اطلق الالمان سراحه فيختفى عن أعين المستعمرين ٠ /

٦ ٠ * تشب صالحة ٠٠ ـ تعثر ذات يوم على مربيتها مجندلة ، وقد طعنها شاب حاول افتكاك عنزتها ٠

تعترف سكينة لصالحة بأنها ليست أمها ، وبأنها تجهل ابويها ، وتروى لها قصة انقاذها من سديرة ٠٠ وتخبرها بأن الذى طعنها بالخنجر شاب يسمى عمر ابن «الفلاق : سديرة» ٠٠ وتموت فيعينها أحد الرعاة على دفنها ٠

تقصد صالحة المدينة بحثا عن أبويها ٠ وتطرق صدفة باب دار أبيها الشيخ رضوان ، فيأويها ٠

يبنى سديرة دارا بالقرب من الكهف ٠

يكتشف رضوان ـ ذات ليلة ـ حين يتأمل العقد الذى اشتراه لزوجته فى جيد صالحة ، أن هذه الغريبة ابنته ٠ فيفرح بعثوره عليها ويحيا أمله ويعود الى الاشتغال بالغناء فى الاعراس ٠ /

٠7 * يعود رضوان ذات يوم الى الدار مصحوبا بشاب يدعى عمر سبق له ان تعلق به ليعلمه العزف على العود ٠ وكان قد قدم له ثمن عنزة باعها من أجله ليقيه غائلة الجوع ٠

يسكن رضوان عمر فى داره ..

يخوض عمر رضوان ويعتدى على شرف ابنته صالحة فى الليلة التى تخلف فيها عمدا عن مرافقة رضوان لاحياء عرس فى احواز المدينة ٠٠ فى نفس الليلة يقطع سديرة الطريق على رضوان ويسلبه ويصرعه بدعوى انتزاع ابنه منه. وتفطن دورية من الشرطة لسديرة ، فتطارده ، وتصيب منه مقتلا ، فيتحامل على نفسه حتى يصل الى داره ٠ ويعترف لشاذلية بالحقيقة ويريها حافظة أوراق زوجها المقتول ، ويموت ٠٠

تنهار شاذلية ، وتيأس من العودة الى زوجها رضوان ٠

٠8 * يأخذ عمر صالحة ـ بعد موت أبيها ـ لتعيش مع أمه ٠ فتستقبلهما شاذلية بجفاء شديد ، وتنعى لعمر أباه ، وتنكر عليه معاشرته لصالحة ٠٠ وتعثر بجوار المغسل على العقد الذى ألبسته لابنتها ٠

تسأل شاذلية صالحة كيف آل العقد اليها ، فتروى لها قصة مولدها فتتيقن شاذلية بأن صالحة ابنتها ٠ فتفرح بلقياها ، وتطلع ابنتها على سر ارتباطها بعمر ٠ وتطمئنها بأنها ليست أم عمر ولو بالرضاع ، وتقص عليها خبر اقدام أحد افراد عصابة سديرة على خطف عمر ليلة وضعه ٠٠ ولم يعثر عليه أبوه الا عندما صار صبيا أثناء غارة شنها مع رجال عصابته على قبيلة غريمه، وقد قتل فى الغارة مربية ابنه وغريمه وعاد بابنه ليعلمه اللصوصية ٠٠ وقد حاولت من جهتها ابعاده عن أبيه ، وحثته على احتراف مهنة شريفة ، والتقى فى أحد الاعراس بفنان شيخ (لا تدرك انه زوجها) ، فلزمه ليتعلم عنه عزف العود ، وهجر أباه ، فتألم وأقسم على الانتقام من الفنان الذى انتزع منه ابنه ٠ /

٠9 * تكتشف صالحة بأن عمر هو الذى غدر بمربيتها سكينة وقتلها ، وأن أباه هو الذى قتل أباها وخطف أمها وعذبها وحاول ذبحها وحرمها من الحياة فى كنف أبويها ، فتحقد عليه وتجفوه .. ويبادلها عمر الحقد حين يعلم من شاذلية حقيقة ارتباطه بها وبابنتها ٠

يقتنى عمر كلبا ضخما متوحشا ، ويطلقه فى الفجر فيهاجم شاذلية ويصرعها اثناء استغراق صالحة فى النوم نتيجة اغوائه لها وافراطها فى السكر ٠

تستيقظ صالحة على المأساة ، فتتهم عمر بقتل أمها ، وتحاول الانتقام منه فيمكر بها ويعذبها ، فتهرب منه وتختفى من حياته ٠ (*) /

١٠٠ * يحتار غياث من التشابه الشديد بين نشأة الحاجة صالحة التى قرأها فى الكتيب ، ونشأة كريمة التى روتها له ٠

يشرع غياث فى كتابة السيناريو الذى تعهد به لكريمة ٠

يستيقظ غياث مرعبا من حلم تحقق فيه من ان كريمة هى الحاجة صالحة ، ويفزع الى الباب ليفتحه فيجد الطارق حارس العمارة وقد عمد الى ايقاظه سهوا ليذهب الى عمله ٠٠ فيسرع غياث الى الادارة ناسيا انه فى اجازة ، فيستغرب زميله على وينبهه الى انه مجاز ، ويزف اليه بشرى اقدام الادارة على صرف المنح المستحقة ٠ فيسعد بالحدث ويقبض مستحقاته ويسرع الى المكتبات بحثا عن كتيب «الحقيقة والمصارحة فى سيرة ومناقب الحاجة صالحة» فلا يعثر عليه فينصرف لتسوية أموره مع شركة الكهرباء والملاك ، ويعود بالمؤونة والفواكه الى بيته ويعكف على الكتابة ٠

ينتهى غياث من تأليف السيناريو ، فيحلق لحيته ويزيل شعثه ٠٠ ويفاجئه صديقه الصحفى سالم بالزيارة ، ويسأله عن أسباب اعتكافه ٠ فيروى له غياث ما وقع له مع كريمة ، فينكر سالم التقاءه بكريمة ومعرفته بها ، فتتضاعف حيرة غياث ، ويودعه سالم وينصرف ٠ /

١١٠ * تثقل الحيرة على غياث فيخرج من شقته ، ويلج أقرب حانة ــ فيدهش حين يرى صورة كريمة معلقة ويحادث صاحب الحانة بشأنها ٠٠

يرى غياث على أحد رفوف الحانة نسخة من كتيب «الحقيقة والمصارحة» ، فيطلبه من صاحب الحانة : رشيد ٠

ينصرف رشيد الى خدمة رجل معتوه يدخل الحانة ، ثم يروى فى تأثر لغياث مأساة المعتوه « حمادى » :

(*) الاحداث الواردة بين معقوفين فرعية فى نمو صلب القصة ٠

[نشأ حمادى فى ظل أب بخيل يدعى «يحيى» • وقد قسا فى معاملته عندما توفيت أمه وتزوج امرأة سليطة ، رغبت كثيرا فى ان تنجب له ذرية ترثه ، ولكنها منيت بالعقم •• وكادت «حلومة» لحمادى وحملت زوجها على طرده من الدار • /

I2 • * احتمى حمادى بخاله «الازهر» فكفله وأنفق على تعليمه بجامع الزيتونة ثم سعى الى الحاقه بالعمل فى مطبعة «العسلى» • ولما شاخ أبوه وأقعده المرض وتوفيت زوجته سعى الى مصالحة ابنه وزوجه بابنة خاله «دلنده» وأوكل اليه أمر رعاية ممتلكاته .

أجر «يحيى» لرجل يزعم أنه تركى (يدعى الشيخ الكرغلى) دارا وحماما عتيقا خاصا بالنساء يقعان فى نهج الشفاء ••

مات الشيخ العسلى فأقدم ورثته على بيع مطبعته الحجرية العتيقة ، فاشتراها منهم حمادى بالرغم من عطبها واهتم باصلاحها وتشغيلها •

تردد حمادى مع أهل الصلاح على مجلس الحاجة صالحة •• وأعد كتابا عن سيرتها ومناقبها وأقوالها وأشعارها وادعيتها وطبعه بمطبعته على نفقته ••

لا يدرى الناس كيف خرج حمادى ذات يوم من دار الحاجة صالحة فاقد الرشد • /

I3 • * فتشت دلندة جيوب زوجها حمادى فوجدت عقدين أحدهما بالتنازل عن الحمام للحاجة صالحة لتشيد على انقاضه مقاما لها ، والثانى ببيع الدار للشيخ الكرغلى زوج الحاجة صالحة ••

تكرر الاحتيال على حمادى وعثرت زوجته على عقد ببيع حانة القطة لعمر ، فرفعت الامر الى القضاء ورفعت يد زوجها عن التصرف فى الارث لفائدة ابنائها واعتنت بعلاجه ورعايته ، موصية رشيدا مدير حانة القطة برعايته حين أخذ فى التردد على الحانة ليتأمل فى ذهول صورة كريمة المعلقة بها •

يعجب غياث كثيرا حين يعلم أن حمادى هو مؤلف كتيب «الحقيقة والمصارحة» •

ويسأل غياث رشيدا عن كيفية مآل الصورة المعلقة بالحانة اليه ، فيخبره بأنه لا يدرى من تكون صاحبة الصورة ، وأنه قبل الصورة مقابل دين لـه على رسام يدعى نديم يشاع أنه انتحر · ولا يعرف اخباره الا بائع متجـول يدعى «عتيق» كان ينادمه ويصاحبه ·

يدخل عتيق الحانة ، حاملا على كتفه مجموعة من الزرابى الصغيرة الفاخرة ، فيدعوه رشيد ويقدم اليه غياثا ، فيجالسه ، وينادمه .

يطلع عتيق غياثا عما يرغب فى معرفته عن علاقته بنديم .

[تعرف عتيق على نديم فى حانة القطة ، وصاحبه ونادمه ، وتولى بطلب منه بيع رسومه ·

قصد عتيق دار نديم بناء على اتفاق سابق معه ليسلمه لوحة للبيع · طرق الباب ، ثم دفعه ودخل ، فوجد نديما منكفئا على وجهه ·· قلبه فرأى الـدم ينزف من جرح فى صدره . فخاف وبادر بالفرار . /

14· * التقى عتيق بطفل فى الطريق ، فطلب منه ابلاغ «عيوشة» مالكة الدار التى يقطنها نديم ، أن رجلين يسألان عنه ، وينتظرانه فى حانة القطة ·

انقطع عتيق من ذلك اليوم عن الحانة ، وابتعد عن دار نديم ··]

يحتد عتيق حين يجره غياث الى الحديث عن صاحبة الصورة المعلقـة فى الحانة ·

يحين أوان غلق الحانة فيخرج غياث بصحبة عتيق ليدله على مسكن نـديم

ما ان يقترب عتيق من مسكن نديم حتى يرفع عقيرته بالغناء ، فتفتح الباب على الاثر عيوشة ·

تخف «عيوشة» لاستقبال عتيق ، وتلومه على هجره لها ، ويقدم اليها عتيق غياثا فتجفل لشبهه بنديم · ويطلب منها عتيق تمكينه من رؤية المسكن ، فتستجيب له ، وتهدى لغياث اللوحة الاخيرة التى رسمها نديم ، فيودعها ويرجع الى شقته ·

يعثر غياث تحت غطاء اللوحة الخلفى على مفكرة و «كاسيت» ملفوفين فى صدار مخضب بالدم . /

(يتبـع)
محمد المختار جنات

سـافـرة

إبـداع نعيمـه الصيـد

فى قبو الفراغ ...
سافرة ...
وحدى الآن ابتدىء ...
وخزة مـاء ... أقـف عند سـاحل
المحيط ...
أضفر من أمواجه ضفيرة ...
أبكى موعدنا البارحه ...
أشعل هشيم الغياب ...
بلم العشب والخضرة المستباحة ...
والصحراء ...
خنجر مرشوق فى الوريد ...
وعشقك ...
لغة ينهال من حروفها دمي ...
آه ...
أنت وحدك ...

بعمق البحار التى أشتهي ...
لو أغرق فيها ...
أنت وحدك ...
بلون السماوات التى أشتهي ...
لو أعبرها ...
ضباب يلفني ...
والجارية بداخل ...
تلملم قشورها عن سرير الأمير ...
والأمل ينبض هامسا ...
لن تغيب الشمس ... لا
لن يسافر عن ليلنا القمر ...
أمامنا أجمل أيام العمر ...
فى أنس ليلة مضت ...

تونس فى 17 ـ 2 ـ 83

صـدر للقصـاصة **نعيمـه الصيـد**

مجموعة ابداعية بعنوان : « **رعشـة حلـم** »

مجموعة قصصية بعنوان : « **الـزحـف** »

غربة ...!

شعر: هشام المحمدي

أمُدّ .. يَدي
وَيَدي بالزّيَاتين مملُوءةٌ
وَخيُوُلي
مُسْرّجَةٌ للرّحيل البَعيد
وَبَيْنَ الهلال وَجُرْحِ الحَمَامَةِ
حُلمِي
يضيء ...
أمُدّ يَدي ، أسْكُنُ الآنَ
صَاعِقَةَ الحُزْنْ ...
أعْلُو التّواريخَ ، ألْعَقُ فَيْضَ الزّحَام

* * *

أمدّ .. يَدي
وَيَدي في ضَبَابِ الضّبَابْ
وَأمْضِي .. أقَبِّلُ بَحّةَ هَذا العَذابِ البَطيء ..
وَزَيْتُونَةٌ نَادرٌ عِشْقُهَا ،
بالعَيَاء الجَريءْ
تُضِيءُ ...
تضيءُ ... تضيءْ ...

«ألواح» بحث صوفي في مدينة حديثة

بقلم : يوسف رزوقة

أ ـ المنصف الوهايبي

«المنصف الوهايبي : من الجيل الجديد في تونس الذي استطاع أن يحرر نفسه من الاقليمية ليتفتح على الابداعات العربية القديمة والمعاصرة وأيضا على الابداعات العالمية التي تنتمي الى مختلف الحضارات منذ بداية التاريخ .

في البداية وبالتحديد في أواخر الستينات ، كان المنصف الوهايبي شاعر الجامعة الغاضب . كان فتى ريفيا مليئا بالحب وبالثورة ، كان يحب رامبو وأبا نواس وأبا تمام والشعراء الصعاليك وتشي غيفارا وتروتسكي .

حين عرفته ، كان يرتدي البرنس المغربي ويملأ جيوبه بالدواوين والسجائر ويجلس في كافتيريا الجامعة يقرأ الشعر ويتحدث عن ثورة الفيتنام والهنود الحمر وفقراء العالم . وفي أواسط السبعينات ، عين للتدريس في مدينة القيروان ، وعندئذ بدأت مرحلة التأمل والهدوء» (1) .

فالمنصف الوهايبي أفرزه نمط ثقافي ، قيرواني متميز ، فقد تلقى في طوره الطفولي ارسالات الانضاج من **مؤسسات أولية** Institutions Primaires فمكنته من امتلاك خبرات شتى كفيلة بتحديد جملة من المواقف الاساسية ، وكيفت نشوءه ضمن نظام أسروي له أسسه وخصائصه .

بعد ذلك ، تلقى ارسالات **المؤسسات الثانوية** Institutions Secondaires (الدين ، طرائق التفكير ، التشكيلات السياسية ...) .

وبالتالي ، يمكن القول : ان **الشخصية الاساسية** Personnalité de Base للقيرواني تتميز بالتقوى وبالحضور الديني ، وقد انعكست هذه ، على المنصف

(1) حسونة المصباحي : الدستور ـ العدد : 228 ـ افريل 1982 ـ ص : 46 .

الوهايبي : **كشخصية فردية** • فجاء شعره «**محاولة لامتلاك صفاء الحضور في روح الكون والاشياء**» (2) • وسنلحظ هذا التأثير البيئي في بثه الشعري : **ألواح** ، دون أن نغفل تحديقه البانورامي في خارطة الشعر العالمي : «**بدر شاكر السياب ، عبد الوهاب البياتي ، سان جون بيرس ، ريلكه ، اليوت ، رامبو : تعلمت من هؤلاء الشعـراء أن الفـن أداة كشف ومعـرفة ، وأن كل حقيقـة فنية تختزن لحظة مستقبلية • تعلمت من البياتي مثلا أن لا أرى في الاشيـاء مدلولها الزمني الآني ، ولكن علي أن أبصر فيها مدلولها الابداعي** » (3) •

ب ـ الواح

ألواح : هي باكورة **المنصف الوهايبي** الشعرية (67 صفحة ، حجم : 21 × 15 نشر : ديميتير ـ تونس) • 23 قصيدة مبوبة كما يلي :

★ **مراثي الملك** وتحتوي : نشيد الملك ، ليلة أخرى ، **في اصطفاق الريح** والنخلة ، ذنوب ، احتفالية ، وأسمى ، هل سنرحل يا رجل **النوء** ؟ •

★ **القصيدة العربية** وتحتوي : في البيت العربي ، النخلة ، **الصحـراء** ، الجمل ، رجل ينهض من غار حراء ، سورة النخيل ، الآن استراحت ركابي ، أنهار ، في منزل السهروردي ، حديث الالواح الطينية .

★ **قصائد أولى** وتحتوي : يوميات بورجوازي صغير ، يد ، أرض ، فناء ، ماسح الاحذية ، أحدب •

«**ألـواح**» : ذاكرة طينية لاختزان الافكار والمعاني ، تنم عن مناخ الكتاتيب الديني •

في «**ألواح**» : تشابك ليفي من الدلالات والرموز ، وفضـاء لا متنـاه مـن الحركية الضمنصية في غلاف لفظي : عتيق ، حديث .

ولا شك أن الدخول في علاقات جدالية مع المقول الشعري ، سيكشف **لنا** عن مدى اختمار **النفس الصوفي** لدى المنصف الوهايبي •

---

(2) + (3) : الدستور ـ العدد 228 ـ أفريل 1982 ـ ص ، ص : 46 ، 47 •

في «**ألواح**» ثلاثة جذور : **الله ، المرأة ، الكون** يتفرع عنها مد شبكي مـن جذاذات ، ذات مداليل مختلفة ، تزج بالشاعر ــ حسب تصنيف كيقوردي ــ في خانة ذات ثلاثة أطوار :

☐ **طور جمالي :** Stade esthétique

حيث **الانجراف بجاذبية الرغبة** التي تحدث في الشاعر تشتتا ، واحساسا فاجعا بالاسى والالم ، لان الشاعر ليس بوسعه اشباع كل احتياجه الرغبي .

«كنت أخرج من مدن البحر ،
ألفاك :
ملفوفة في قميص العروس المحناة ،
وهي تزف الى قبرها ..
فاكور اسمك يا أخت :
فاكهة السنوات العجاف ...» (4)

انه منتهى التداعي في قبضة الاحلام الجهيضة ، بحثا عن **لذة الذات وعن** هنيهات **الهناء في وجود غير ذي هناء .. وهذا** الشقاء **الدائم مشتق من هباء** البحث عن بهاء الاشراقة المستحيلة ، ونابع من ذات **لا تماسك لها : متذررة** حسا . وهذا ديدن الشاعر الحقيقي الذي لا يني يبحث عن ذاته **في طمى العذاب** وعن لذاته في استحالة الرغبات ..

☐ **طور أخلاقي :** Stade éthique

حيث **الانحناء للانموذج السلوكي (الاخلاقي)** وحيث يضع الشاعر تصرفه العملي تحت نواميس تقييمية ، مجردة ..

«... انه السهروردي : زين مجالسكم
عاد مختلجا ،
لو فسحتم له بينكم
سيقيم على سفر ..» (5)

على هذا النحو من التمثل اللاشعوري للمنوال الاخلاقي ، ينمذج الشاعـر سلوكاته ، ويلتقي المهيمن والمهيمن عليه على نفس الخط الشبهي . فيكـون المهيمن مثالا : والمهيمن عليه : ظلاله .

---

(4) ألواح : ص 15 (... وأسمى) ..
(5) ألواح : ص 45 (في منزل السهروردي) .

□ **طور ديني** : Stade religieux

ويعني **السمو بالفكر (أو بالشعور)** من الدنيوي الى اللادنيوي ، من الصورة الى الهيولى • وفي «ألواح» : تحليق نوراني غزير ، وملائكية لها كم جناح مثالي ••

«ها أنت تبلغ باب الله مرتبكا || هذا الهوى الصعب يا مولاي ، شردتي
الرجه منخطف والروح مشتعل || ألا بسطت يدا تحنو وتنتشل» (6)

يشذ المنصف الوهايبي في **«ألواح»** عن عصره ، تراجعا الى الوراء ، ويكرس **«غربة النص الشعري»** بأن يجعل منه صدى للماضي ومحاكاة له ، أي أن الشاعر يعيش بداخلية أثرية واحساس أركيولوجي ، بدل انبجاسه من واقعية العصر ، هذا العصر •

وعائدية هذا ، الى مدى شغف الشاعر **بالخلط التاريخي** ، وأساسه ــ كما عبر عنه **ج• جينات** Gérard Genette في **«مدخل الى النص الرئيسي** Introduction à l'Architexte» **ــ الاحتياج الواهم الذي يعاني منه المبدع ، فهو يرغب دائما في ايجاد سند من الماضي يعينه على اعطاء المفاهيم الحديثة سمات الوضوح** ، **فكما احتاج الاب باتو الى أرسطو ، احتاج فرويد الى سوفوكليس (7)** •

والمنصف الوهايبي يتمثل الوهم نفسه في زواجه الصوفي **بالسهروردي** •

«ينظر السهروردي من كوة : || هل ستهتز في قبر عائشة عشبة ؟
السماء الختينة تنذر بالغيم ، || وصفيك عطشان
هل ستفتح أنثى النخيل أغاريضها ؟ || هلا منحت صفيك جرعة ماء ؟ » (8)

فهل تحققت **الحداثة الشعرية** في **«ألواح»** ؟

---

(6) ألواح : ص 12 (احتفالية) •

(7) فصول ص 30 ــ هدى وصفي ــ العدد : 3 ــ أفريل 1981 •

(8) ألواح : ص 45 (في منزل السهروردي)

«ان الحداثة الشعرية ليست ـ عمقيا ـ فى الخروج عن عروضية القصيدة العربية ، وانما فى اكتشاف لغة شعرية جديدة تستجيب لوجدان انسان حديث شرط أن تبقى متصلة بروحية الشعر العربى» (9)

ان المتصفح لـ **«ألواح»** قراءة وبحثا ، يلحظ أن النص ـ بوصفه لغة وحدثا ـ **معاق كرونو شعريا** ، أى أنه يتناص ـ روحا واهابا ـ مع النص الشعرى الكلاسيكى • فالشاعر لا يفارق متقدميه من الشعراء الا فى بعض الفويرقات الضئيلة ، على الصعيد اللغوى • وبالتالى ، تنتفى مخايل الحداثة من بشه الشعرى ، وتنتفى معها مواطن الاضافة الشعرية • ومرد هذا ، الى غزارة **أصداء النص** Intertextes ، **الشعرى** وقد فسرها **ريفتار** Riffaterre بأنها **متن لا نهائى ، ولكننا نستطيع دائما التعرف على بدايته • فأصداء النص هى ما يتخلل النص من نصوص أخرى سابقة عنه ، انها مجموعة النصوص التى تتبادر الى الذهن أثناء قراءة نص بعينه •• (10) •**

فى **«ألواح»** : تتجلى **«أصداء النص»** فى كم مقطع شعرى • فالمنصف الوهايبى يستعى ـ فى أشعاره ـ شخصية السهروردى باستمرار ، فما سر هذا الحنين الدائم الى عالم الاضابير العتيقة ؟

« أى نهج سانهج بين المفازات يا سيدى السهروردى ؟

انهم يسألونك عن آخر الحلم أيان يفتض مغلقه ،

قل ضعوا ، فى يد الله أيديكم ،

واقتفوا أثر النهر والعاصفه ••» (11)

● هل هى رغبة من الشاعر فى تقمص شخصية الصوفى ؟ ولتبين موقع الوهايبى الصوفى يجمل بنا التلفت الى **ماهية التصوف** : ظاهرة وضروبا ..

سئل **الجنيد** عن التصوف فقال : **أن تكون مع الله بلا علاقة** (12) •

---

(9) الوطن العربى ـ ص 55 ـ أحمد عبد المعطى حجازى عدد 285 ـ أوت 1982
(10) فصول :
(11) ألواح : ص 47 • (فى منزل السهروردى) •
(12) كتاب «عوارف المعارف» • عبد القاهر بن عبد الله السهروردى ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت • ص 53 •

فالتصوف اسم جامع لمعاني الفقر ومعاني الزهد ، مع مزيد أوصاف واضافات لا يكون بدونها المرء صوفيا وان كان زاهدا وفقيرا ·· (13) ·

فهل الوهايبي يتعاطى مثل هذا السلوك الصوفي ؟ بالتأكيد **لا** · اذن ، هو ليس صوفيا ولكنه متشبه به ·

«ان المتشبه بالصوفية ما اختار التشبه بهم دون غيرهم من الطوائف الا لمحبته اياهم» (14) ·

قد يكون المنصف الوهايبي ينتمي الى الصوفية وليس منهم وهذا الانتماء ينسحب على « **القلندرية** » وهم : « أقوام ملكهم سكر طيبة قلوبهم حتى خربوا العادات ، **لا يترسمون بمراسم المتقشفين والمتزهدين والمتعبدين وقنعوا بطيبة قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك » (15)** .

اذن ، تصوف الوهايبي **نظري** ، خارج وهج **الممارسة** الصوفية · انه **«قلندري»** طيب القلب مع الله ·

الى جانب **«السهروردي»** ، تتخلل اشعار الوهايبي أنفاس **«رابعة العدوية»** وقد يكون محض تناص بالصدفة :

تقول رابعة العدوية :

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي ⁂ وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجليس مؤانس ⁂ وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي (16)

---

(13) المصدر نفسه · ص 54 ·
(14) المصدر نفسه ـ ص 65 ·
(15) المصدر نفسه ـ ص 77 ·
(16) المصدر نفسه ـ ص 512 ·

وهذه «الاباحية ذات البعد الصوفى» نتبينها عند الوهايبى ، ولكن بصوغ شعرى حديث :

«قالت الملكه :	**يتوهج روحى ويبتهج**
....	**وأقول انغرس**
	أيها الرمح فى جسدى المنتشى
حين تدخل بيتى	**وأقول اغتسل**
ساخرج كالحلم عارية ،	**أيها الرمح فى عطشى ..» (17)**

● ولا يفوتنا أيضا أن نلحظ مدى ولع الشاعر **بصدى النغم القرآنى** الذى ينضاف الى أصداء النص الشعرى .

«وها جاءك الطلق	**فالقينا عليه محبة منا**
فانتبذى الآن منهم مكانا قصيا	**وارسلنا الرياح مبشرات بالندى**
ومدى يديك لريح البحار ..» (18)	**ولسوف تحمله فيسعى ..**
....	**أيها الحلم الذى كنا اصطفينا**
	....
«وألقت حلمها فى النهر	**سلام أنت حتى مطلع الفجر» (19)**

المنصف الوهايبى باحث صوفى ، ولكن فى مدينة حديثة . وحبذا لو يتساءل قليلا ، بحثا عن **«استقلالية مرجعية»** حتى لا يذوب نصه الشعرى بين أصداء النصوص القديمة ...

يوسف رزوقه

---

(17) ألواح : ص 52 (حديث الالواح الطينية) .
(18) ألواح : ص 52 (حديث الالواح الطينية) .
(19) ألواح : ص 35 (سورة النخيل) ..

عبير السوداد

شعر: محمد بن صابر

ساحراتُ اللحاظ صادتْ فؤادي ... وأطالتْ تولعي وسهـــــادي
وسرى لطفُهَا بأعْمَاق روحي ... فانتشى وهوَ بالروَائع شَـادِ
وعيُون مِنَ الجُفُونِ رَمَتْنِي ... كسُيُوفٍ تُسَلّ مِـنْ أغْمَادِ
خَامَرَتْنِي عُذُوبَةً وعَـذابا ... مثلَ راحٍ تَدُبّ في الأجْسَادِ
يَا صَفَاءً بِهِ الوُجُودُ تَجَلى ... وتحَلى بِرَوْنَقٍ فِيهِ بَادِ
حَوَرٌ أخجَلَ المَهَاةَ جمَالا ... ما يُرَى في حواضِرٍ أوْ بِوَادِ
فَبِهِ الدّلّ طوّقَ التيَتّمَ ذلا ... لِلذّ في المنكرِ بعدَ حلْو العنادِ
نظَرَاتٌ متى اخترقنَ كيَانِي ... فهيَ تَرْوِي غَلِيلَ قَلْبٍ صَادِ
هيَ كالبردِ والسلامِ لِمَحْمُو ... مِ هوَاهَا مِنْ حَرّهَا في ارتعادِ
رُبّ زَهْرٍ بِهِ مَخَائِلُ ثغْرٍ ... فَاتِنٍ مِنْ مَحَاسِنِ الأضْدَادِ
وَرَحِيقٍ مِنَ اللمَى – رَاقَ طعما ... مُسْتَطَاب .. مُعَتّقٍ .. مستجَادِ
وإذا افترّ لاحَ فَجْرٌ سَنِـــــي ... عَنْ لآلٍ بَدِيعَةِ الأنْضَادِ
وورود الخدود فَاحَتْ عطوراً ... تغرق الصبّ في عبير الســـودادِ
سحر الجِيدُ مهجتي إذْ تَثَنّى ... وتَجنّى وَبَاتَ خَيْرَ جَوادِ
تحتَ شَعرٍ أظلنَا فاسْتَتَرْنَا ... بمُحَيّا مصباحِها الوَقّادِ
ونهودٍ على التحدّي شُهُودٍ ... قَدْ أشَارَتْ بإصْبَعَيْنِ تُنَادِي
عندَ صَدْرٍ حوَتْ حَنَايَاهُ عطفاً ... وحنانا إليه طيبُ استنَادِ

فوقَ خصر على الرّشاقةِ رَخْوٍ ... إنْ تَمَشّتْ امَالَهَا فِي اتئادِ
فهِي تختالُ .مثْلَ غُصْنٍ تَهَادَى ... لهفَ قلبِي مِنْ قدّها المياد
خَطرَاتُ "السيكاه" فِي إثر رَسَتْ ... و"حجازٍ" ترُوقُ حسن تهَادِ
آية السّائلين في الحسن تاهَتْ ... خيلاء ونَخْوَةَ استعباد
صارَ حُبّي صبابَةً فَغَرَاما ... ليْس فيه مِنْ حِيلة أو تفادِ
وَمَضَى العُمْرُ في حنين لِطَيْف ... مِنْهُ أدْنُو ويستَلِذّ بِعَادِي
فَاض وجدِي بها وما أنا سالٍ ... عنهُ حينا .. ومالهُ مِنْ نفَادِ
كلّمَا عزّ وصلهَا كانَ شوْقِي ... دُونَ صبر إلى اللقا فِي ازْدِيادِ
مَلَكتني وصُنْتُ عَهْدَ وفَاء ... فَجَزَتْنِي عَلَيْهِ بِاستبدَادِ
وكأنّ الهوَى رَعَاهُ صِبانَا ... فاحتوَى ذكرَ طارفٍ وتَلادِ
إنْ روحِي وروحَهَا فِي ائتلاف ... ظهرَ غيْبٍ وأصْبَحَا في اتحاد
أيها العاذلِ ولسْتُ سَمِيعا ... دَعْ مَلامِي ودَعْوَتِي للرّشَادِ
فسأبقى أحبّهَا فِي جُنُونِي ... هائما .. تائِها .. ليوم المعَاد

محمد بن صابر

ننشر في الأعداد القادمة

حبك ليس بعده حب (قصة)	شفيقة الساحلي
النحلة والزجاج (قصة)	عبد المجيد النفزي
قراءة عن جابر بن حيان الصوفي (دراسة)	عبد الرحمان التليلي
نموذج من النقد الادبي عند العرب (دراسة)	المنصف الزغل
دور الكلمة في التركيب اللغوي (دراسة)	محمد أنور بوسنينه
حول الحصري وكتابه « زهر الآداب » (دراسة) ..	محمد المختار العبيدي
مسكون أنا فقط.. بعشق الشعر فقط ! (دراسة)	الصادق شرف

الليل ... لحن الوفاء

رواية : مصطفى المدايني (*)

- ١ -

الليل .. (*) لحن الوفاء الدافىء يتسرب فى الدواخل تدريجيا مميطا اللثام عن فواجع سرمدية تنكشف الاغوار عارية الاديم واللهيب مسعر تنتفى ابجديات حب . والوجوه الكحينة ترمق الايام تنتظر لحظات الصب الكبرى وها أنت تمرق بين اشجار الصنوبر البرى حاملا هواجس حاقدة . انت هنا لحن تائه عبر وجود عبثى السمة يلفح الصقيع الارض الجرداء والليالى المضنية تتبع الطريق الصعب . أو ان وقفت وحيدا ذات مساء على حافة الهوة الفاصلة بين النار الحرى والضياء الازلى اتخذت وجهة الصخب دون عنف . وضعت حدا لما ينقر الداخل ولم تتجرأ ولم تتوان عن النظر من جديد بحثا عن الهوية المفقودة .

الاسم : مصطفى السلطان ـ ولدت صخبا ليلة شتائية فى بدء القرن المشؤوم . لا تعرف بالضبط منشأك ، انما هى ملامح استجلاها الاب من الذاكرة . شاءت الصدفة ان تأتى فى زمن الاكفهرار . لعله التوله القاتل تقول تلك التى راقبتك وانت تستقبل العالم الآثم : ولدت زمن التحام الاوقات لحظة المواجع وانفجار اللغم الذى أودى بحياة العم حمدان ... الوجه الصبوح الذى عابثك طويلا كان يمرر اليد على الجسم اللين .. يقول : طفل .. لا كالاطفال ... وكبرت لقبت « بالعبيط » والمشؤوم .

تساءلت والام تجرعك شراب الخزامى والشيح والعرار عن المباح فى الزمن الكلب . التجأت مرة الى النار تلمستها بيد مرتعشة ضاحكا كنت ، وباحثا عن السر .. وكنت رغم الصغر تتذكر الطعم الكريه لمشروب قالت العجوز المجدورة الوجه انه الدواء لداء سعال الديك . تساءلت بعد مدة وانت على رصيف مدينة ساحلية ذات هواء منعش ، تساءلت وانت ترمق

(*) هذا الجزء الاول من رواية بعنوان : « الليل .. لحن الوفاء » .

الوجوه الصبوحة التى لا تنى عن الغبطة والابتسام ، تساءلت هل عرفت هذه الوجوه صقيع مدن الاغلال والتفسخ واعياد العذابات الصباحية وشراب الخزامى والحلفاء .

هذه الايام وهى تمضى تباعا لا تستقر على حال . إانهزمت زمن المرارة أم هى تقاتلك صمتا . نوح هى المواسم هذه ، وراحة رغم ذاك العبد فى هذه الاهزوجة يمزق ويجلد لكنه فى الاخير يغرق . فى وحل الايام .

كان الطعم فجا . شربت منه فتسرب الى كيانك نغصا . وددت لو تلاطم المحيط صنوا للامواج العاتية . واندهشت . تطلعت الى وجوه قمحية باسمة والسؤال ممض . ماذا لو تذوقت ذاك الشراب الحنظلى كل من « بيازريس » وايزابيل وكاترين !؟ ضحكت ...

كاترين ارهقتك كثيرا . انهدت امامك بع العديد من المحاولات اليائسة ولم تفشل لكنك تجرعت ، وامام المسرح الكبير عذاب الانتظار القاتل ... اما روديكا .. روديكا الرومانية الاصل والآتية من بحار الشمال الجامدة .. روديكا هذا الشىء الآخر المر ــ الحلو معا .. لعله الطحلب البحرى او ان اخضراره وابان رونقه البدائى .. قالت لك : لا تبتسم . هنا لا نحب العبادة والتوله الكبير .. الفؤاد فانوس نحاسى الخرق .

كانت اليد ثلجية الاديم ، والدمع فى العين نوطة وداع .. هل هى المواجع أم هو الصقيع .. وروديكا كانت ملتقى الحيال والحبال .. وكانت نقطة بدء للانهيار .. حدثتها عن الهموم والرؤى والآفاق واوضحت لها معانى المحاماة والدفاع الشرعى عن المظلوم .. وحادثتك ليلة شتائية عن مآسى اصقاع بعيدة ... تقول : الحرب نوطة لا مناص منها ، وتتار هذا العصر لا يعرفون معنى للهدوء والراحة . غرقتما فى قتامة الايام . الحديث عن الحرب يفقد المشاعر والدفء ... وتذكرت مدينة مسوره مررت بها ذات مساء .. كان ليلها متلألأ الاضواء .. والجو به رطوبة خاصة ... اندسست فى فراش بارد الحواشى .. تفكر فى الرحلة القادمة .

ــ 2 ــ

القطار راسب . جثة باردة . هنا فى المحطة تبدو الكآبة كيانا سرمديا رقدت جحافل ثم مرت . رمقت الاشياء المحيطة بعين مغترب . منذ متى

وانت مسكون . النظر تحد صارخ والكيان المكهرب يبحث عن القرار . الذاكرة نشيج رمادى الوشائج . كنت طفلا متهدج الصوت تجرى وراء فرس حرون . الاب يزعق ، والفرس فى شروده يحكى الدهر . الطفل ـ البرعم يسرع الخطو للمسك بالزمام الصعب المدرسة حقبة لا بد منها . وفجأة ، وفى نفس المكان وعلى هامش مساء شتائى حيث الاواصر جاء عون ، جاء الى الاب الشيخ مبتسما . قال : مصطفى السلطان . تقدمت : تفضل . قال باقتضاب وهو يحدجك بنظر متفحص : « تعال ... » خرجت ، كان الجبل الاجرد يحيط بالمدينة ـ الكآبة ... ليلتها ، لم يعرف لك مقر .

القطار راسب جحافل المسافرين تتوارد كأسراب طيور مهاجرة . فتح باب از المحرك . الدخان يتصاعد ليعم الاعالى . دخان مخنق ... العربات تقترب لتلتصق تكون سلسلة متعاقبة .. واحدة ، اثنان ، ثلاثة ... المسافرون يتجمعون على الارصفة حسب التوجهات اقتربت من سارية عليها ملصقات متآكلةالاطراف تمعنت فى الخطوط المنحنية والصور . خمنت لعلها اعلانات لبعض المواد التجميلية ... تذكرت هيلين . ومساحيق سنوات الثلاثين .. والشعر القصير ، وجدائل مارتين الرائعة ... نقرت علىالمقعد الخشبى لم تشأ الجلوس . الرحلة طويلة ، شاقة وقد مللت الجلوس بين تلك الجدران الملساء ... الآن وانت تتهيأ للركوب تترك وراءك مدينة خلبت منك اللب .. تتركها غير عابىء بالآتى ..

جاء القطار . مرج . وهرج . والمناكب . تأخرت عن الصعود لم لا تنتظر القطار الموالى ... لم السرعة وانت الذى تضيع الوقت ربحا له .. تذكرت تلك الايام البائسة ، ولعلها ايام الخير الحق .. لم نكن لننتظر القطارات المولية ، ولم نكن نجد صعوبة فى الارتقاء .. الآن . الخطو كئيب، وأوجاع فى المؤخرة تخز كذؤابات الاشعة .. كنت لحنا جذلا ، قال العون يتفحصك باهتمام بالغ : « الضابط منشرح بضبطك » .. وقال الضابط : « نحن عادلون مع رجال القضاء كما تعلم ... » ضحكت ... وعندما أودعت الغرفة ـ المعبد ـ السجن ـ قلت : « مستقر رائع ... بعد حرية دامت عقودا خمسة .. » .

وعندما صعدت القطار ، ارتكنت فى زاوية بحثا عن الدفء والراحة ورمقت حمائم تعبر الساحة من العاب عنكبوتية ، الوجوه هذه الايام فاقدة

لكل تعبير واضح ، ساهمة هي العيون الداجيه هذا ما استقر عليه رأيك ، انها ايام الانجلاء والذوبان الفاضح . تذكرت روديكا وهي تسترق السمع لدقات قلبك وتقول : يمكن للانسان ان يعلم كل شيء .. وعند الاستباحة تؤكد : الحياة رونق متألق سريع الافول ...

تأوهت • ورغم بلوغك العقد السادس فان المواجع مهما عظمت تمحى وأنت تنظر الى أفق شمسي الاطراف تتجسد أمامك الاحداث ... هل أنت مدمن على حياة الذكرى أم هي مواجع الايام تعود . يتناغى القمر لليالي الظلمة ويستبيح الرونق الآفل لحظات الصب . ابتسمت وانت ترمق طفلا جلي الملامح آتيا من بعيد يحمل في عينيه مآسي الصمت المترب هذا الطفل ... هذا الغد المضمحل والمفعم بدياجي الآتي ، يبسم لليوم القادم . انظر . المواسم تأتي متتابعة تحكي أزلية الاقدار . وفي ذاك العهد القاتل رافقك صبي نقي البسمة ترافقتما عبر محطات الدراسة .. ولم تفترقا الا بعد مضي عقدين من الزمن .. اذ دفع بك في السيارة .. وكان مشهد الصبي المكسو دما نازفا يرعد . ورغم ذاك قال . اياك والخوف .. نحن في زمن الاجهاضات المستمرة ...

ابتسمت .

تحرك القطار . عما قليل تبتدىء رحلة اردتها مضنية ... رمقت اليد هذه المرة احسست ان الدم يستعيد دفعاته الاولى ... رمقتها مرة اخرى ، وبوعي لتعلم انك .. حر ، طليق ...

ـ 3 ـ

ـ الاسم !

ـ مصطفى السلطان

ـ العمر ؟

ـ 50 سنة

ـ المهنة !

ـ محام ـ لسان دفاع شرعي .

بجلاء كنت تجيب . كنت ممن يكرهون التلعثم والذين يتلونـون الصفـة المفضلة ـ المتعبة : الصدق . الاباء الصرامة مـع النفس والصراحـة مـع الآخرين . امراض المجتمـع مواجـع قاتلـة خمنـت وانت ترمـق الجسـد المسجـى .. مـاذا وراء الجسـد وإلام المصيـر .؟ اتنهـد .. والوعى منا الـى اضمحلال ... قالت ايزابيل وانتما تركبان القطار الهوائى : السمـاء اروع من اليابسة ... قلت :الارض هى المطمح .. قالت : ارنو دائما الى الاعلى. قلت لها والذوبان يستهويك : اقلعى عن الارتطام بالِيم المجمد ... أجابت : أفق ولا تنس الكوابيس ... تلثمت بالصبر حينا ...

قال : يبدو انى اعرفك ..

تأملته جيدا . لطيف الابتسام ، حسن الهندام ، حليق الذقن متأنـق ... خمنت : ملابسه مستوردة ... كانه القادم من الاعالى .. رفعت الرأس اشيب الشعر هو ··· بهى الطلعة جميل الصورة مرت أمامك عديد الاخيلة ·· وجه مدور به بعض النمش لم تسعفك الذاكرة .

قلت : لا غرابـــة ...

قال : ألم تتخرج من كلية الحقوق ...

أومأت كنت حريصا على الكلام والصمت معا . الدياجـى لا تفيق بسرعة ظلمة البحر الآفل ، منذ متى فارقت جحافل القتل اليومى ، صمت قليـلا . نظر فى الوجه وأمعن . قال بعد لحظـات ولـه قصـوى : اعمـل فى وكالـة للانباء خارجيـــة ...

صمـت

صمـت

وبعد مدة أضاف : الهواء فى الخارج منعش .

حركية القطار أزيز متواصل . احببت هذه الرحلة لانها عين الارعاق ... وهى أيضا عنوان الترويح عن النفس المترعة ... تقـول تيريـز : الرحـلات انعاش للضمير المقتول ...

قال : أنت .. كنت من المحظوظين .. ايام الدراسة .

وصمت ليواصل بعد حين : اما انا فعرفت الويلات وما عرفت القرار ..

هذه المرة استفاق عنك كابوس صارخ ، ولم تصمت قفز الوجه العذب الى النفس المتعطشة الى ماضيها الآفل .. وقلت : انور عبد المجيد ..!

قال : نعم ...

اومأ منك الراس . ابتسمت . قفزة هي نحو الماضي السحيق الجرى وراء الفراش اوان الطفولة الاولى .. .ثم طرق باريس الملتوية ومحطات سان جرمان ومداخل سان لازار وأعالى محطات عربات الفضاء ... رمقك من جديد .. الاسم .. الاسم هكذا صاح خبت فى نفسه تلك النزوة . اطمئن ولم يأمن .. رآك تلتفت الى الخارج .. اخرج سيجارة سالك التدخين .. ابتسمت وانت تنفث الدخان بفرح طاغ ... علمت ان الاصدقاء الاقدمين ينبشون الماضى فى عملية يائسة لاستعادة الايام الهاربة ..تذكرت قولة حكيم صينى قيل انه عاش الدهر : الصديق تاريخ حتى رغم المواسم الآفلة ...

هذه المرة قلت مبتهجا : كان القطار رحيما .

(للرواية صلة)

مصطفى المداينى

فى الأعداد القادمة ننشر

قصائد من « **جويس منصور** » .. تعريب : **محمد منقذ الهاشمى**
من شعر « **بيثنتى ألكسندرى** » .. تعريب : **د. عبد الله حمادى**
من شعر « **فكتور ديك** » .... تعريب : **محسن بن حميده**
من شعر « **رولندو سيرتا**» .... تعريب : **حسن سلامه**

يا أنت ...

شعر: فاطمه بديوي
(سوريا)

يا أنتَ .. أول تمثـــال ألـوذُ بـه
يـا أنت .. أصدقَ ربّ للهوى العـذُري

يـا أنت .. أقـدس محـراب سعيتُ بـه
مفتشا فـي زوايا الله عن صُــوَرِي

عن مُهْجَـةٍ أُدْمِيَتْ شدَّتْ بغير يد
في الخيطِ مِنْ مَسَـدٍ في مأتمِ حَجَرِي

عَنْ عُمريَ الملتفّ بالأيام مكتئبا
عَنْ بَـا كِيَـاتٍ بصَمت الله والقبَرِ

عَنْ نَائِحَـاتٍ بطرفٍ كـلّ منْ شجنٍ
وأذبلتْـهُ خَفَايَا ظلْمَـــةِ القَــدَرِ

فافترّ ثغرُ ضيَـاءِ الصبحِ نَمْنَمَــةً
وانهـلّ طـلّ عـلى الأجفانِ والغررِ

ولملمتْ دمعي الرّهبَـان خَـاشعَـةً
في آنيَـاتِ الشّـذَى في ألسنِ الزّهَرِ

وحـركتْ عِنْدَمَـا هبّتْ صَبا رَعـدي
قلبا معنى جفّفَتْـهُ نَشْوَةُ السكـرِ

مِـنْ صبـوَةٍ وارتشَـافٍ بعدَ طول ظما
أضَـاعَ وردَ الصِّبَا مِـنْ روضَةِ العمُرِ
يا أنت .. يا أنت .. يـا قيثارة حفلتْ
بأروعِ اللحـنِ مِـنْ بَـادٍ وَمُسْتَتِـر
يَـا أنت .. أفْـقَ سَمـاوَاتٍ أهِيـمُ بها
أسَائِلُ الله عَنْ رُؤْيَايَ عَنْ بَصَرِي
وأنتَ لي حُسْـنُ مَايُنْبِـي الشعور بهِ
وأنتَ لِي العِقْـدُ مِـنْ مُسْتَخلص الدرر
يَا أنتَ .. يـا أنتَ .. منْ غنى الفؤادُ به
لحْنَ الخلـودِ بـلا عُـودٍ .. وَلاَ وَتَـرِ
يـا أنتَ .. أول مَـنْ مَـاس اليَـرَاعُ به
فاختَـالَ تحْتَ ضِيَـاءِ الأنْجُمِ الزّهرِ
أهـديتـك العمـر .. والقلبَ الندي رُؤَى
فامنحني البُـرْءَ مِنْ هَمّ وَمِنْ خَطرِ
وصنتُ عُمـرِيَ عـنْ كـلّ الأيام علّي
وجئتُ نحوَك في ظـلّ مِـنَ الخَفَـر
في حَالمٍ .. نـاهِـد .. في صـافيـات لمى
فِـي بَـارقٍ يتَحَـرّى انبَلَ الصّوَرِ

فاطمـة بديـوي

(سوريـا)

الطلبة الجزائريون بتونس

(1900 – 1962)

بقلم : محمد صالح الجابري

– 4 – (*)

ان بروز الجمعية على النحو الذى برزت به فى سنة 1936 كان من نتاج العمل المثابر الذى قام به بن باديس شخصيا ، وانعكاسا لظهور حركة جمعية العلماء كتنظيم دينى وسياسى واضح الغايات والاهداف . لذلك طالب هؤلاء الطلبة فى أول بيان توجهوا به الى الشعب الجزائرى على صفحات جريدة (البصائر) بـ « ان تعيرهم جمعية العلماء التفاتا وعناية. لان الطلبة هم مادتها الاولية، وناصروها الاوفياء . وهم الذين ينشرون مبادئها، ويرفعون لواءها عاليا» (44) . كما طلبوا ايضا فى نفس البيان من أمتهم الجزائرية « ان تسأل عن أبنائها البررة ورجالها فى المستقبل الذين تفهمهم ويفهمونها ، ويحافظون على كيانها وقوميتها باخلاص وأمانة » .

وحدد البيان كذلك أهداف الجمعية الوطنية والقومية والسياسية ، وهى تتمثل فى الارتباط العضوى بجمعية العلماء واعمالها القائمة على الدعوة والاصلاح ، واعلان المطالب الوطنية ، باعتبار أن الشباب الطالبى هو الرديف الاساسى لحركة جمعية العلماء وهو الانعكاس المباشر لاعمالها فى ميدان نشر العلم الذى لم يزدهر الا بازدهار حركة الاصلاح ، ونهضة الجمعية واشعاعها فى كل أنحاء الجزائر فليس « خافيا على أحد أن من برنامج الجمعية (جمعية العلماء)

(*) تابع لما نشر فى « الفكر » العدد : 6 ـ السنة : 28 ـ مارس 1983 .

(44) (البصائر) 20 نوفمبر 1936 عدد 44 وهى رسالة موجهة من الهيئة الادارية الجديدة بلسان كاتبها العام أحمد بن أبى زيد الاغواطى الى الشعب الجزائرى من خلال شخصية « حضرة الداعية الاكبر سيدى الشيخ الطيب العقبى اطال الله بقاءه للعلم والاصلاح » .

نشر العلم الذى هو أساس الدين الصحيح ، والنهوض الحقيقى ، وحث الامة الجزائرية على الكرع من ينابيعه .

وقد ظهرت نتيجة هذه الدعوة ، ودنت ثمرتها من القطوف بتكاثر عدد المزاولين للعلم بجامع الزيتونة الاعظم ، اذ يقرب عددهم الآن من المائتين ، فى حين أنه قبل الجمعية لم يتجاوز الخمسين » .

ويبدو ان نشاط هؤلاء الطلبة اتخذ فى بعض الاحيان أبعادا سياسية جديدة (45) ، وذلك بمحاولتهم ربط الصلة بصفة مباشرة وفعالة بحركة العمال الجزائريين ، ودعوتهم الامام بن باديس لالقاء محاضرته المشار اليها آنفا بقصر الجمعيات على شرف جمعيتهم و « الجمعية الودادية الجزائرية الاسلامية » التى كان يرأسها قلش الزين ، وتضم فى عضويتها الجزائريين العاملين بتونس ، اظهارا للتضامن والتماسك بين اعضاء الجالية الجزائرية المهاجرة بسبب الظروف الاستعمارية المعروفة .

وبذا يمكن اعتبار الثلاثينات من أهم الفترات بالنسبة لهذه الجمعية ، اذ تميزت خلالها بالنشاط والحيوية وكانت أعمالها تحتل الصحافة وتستقطب اليها الكتاب والشعراء من التونسيين ، وخصوصا من طلبة الجامع وشيوخه الذين تعاطفوا تعاطفا واضحا مع قضايا هؤلاء الطلبة وساهموا فى نشاطهم ، وشاركوا فى عدد من احتفالاتهم وعلى الخصوص احتفالهم بذكرى الهجرة النبوية الكريمة ، فكان من بين من نشرت لهم (الثمرة الاولى) مقالات بالمناسبة

---

(45) من مظاهر قوة الجمعية خلال هذه الفترة انها حملت الشاعر محمدالاخضر السائحى على نظم نشيد خاص بها يحفظه الطلبة ليؤدى فى المناسبات الوطنية والاجتماعية التى تضم الجزائريين . وفى هذا النشيد تبرز تلك المعانى السامية التى انشئت الجمعية من اجلها .

يقول الشاعر فى بعض اجزاء هذا النشيد مخاطبا بلاده :

سندرأ بالسيف عنك العذاب … ونرفع بالعلم فيك العلم
فمن للجزائر غير الشباب … يجاهد بالسيف او بالقلم
يتوق الى العيش حرا مهاب … يرى الحرب مستعرا كالسلم
فانا بنو الفاتحين الاول … بلادى وأشبال تلك الاسود
لنا نهجوا اسوة فى العمل … سيرضيك منا ويرضى الجدود
غدا يتحقق ذاك الامل … لديك وليس غد ببعيد

للشيخ محمد الصادق بسيس (46) الذى شارك فى العدد المشار اليه بموضوع عن (ذكرى هجرة منقذ الكون وسر الوجود) ، والشاعر عبد الله الزريبى (47) بقصيد عن (ذكرى الهجرة) . وما ان اندلعت الحرب العالمية الثانية حتى انطوى نشاط الجمعية ، وهاجر رئيسها الشيخ الشاذلى المكى الى القاهرة ولم تستأنف نشاطها ككل المؤسسات الاخرى الا بعد الحرب .

وبمجرد أن عادت الحياة الاجتماعية والثقافية ، استانفت الجمعية من جديد نشاطها ، وأخذت تلم شتاتها بمساعدات مالية من جمعية العلماء ، وبتبرعات أشرف على جمعها الشيخ أحمد السعودى « غير ان عملها الادبى فى هذه الفترة كان أبرز وأظهر ، فتعهدت باقامة الاجتماعات الاسبوعية فى مساكن الطلبة ، تلقى فيها الخطب والمقالات المتنوعة كما تعهدت بتصحيح المواضيع المختلفة التى تعطيها للطلبة فى كل اسبوع مما كان له النتيجة الحسنة فى امتحان الشهادة الاهلية فى تلك السنة » (48) .

وفى هذا الصدد نجد الجمعية تعود الى الاسلوب الاول الذى اتبعته وهو اعطاؤها دروسا خاصة لتكوين الطلبة وحثهم على المراجعة والدرس دون ان تغفل مهمتها فى تكوين الخطباء ، واتاحة الفرصة لهم للتعود على مواجهة الجمهور ، مواصلة لتلك الخطة التى انتهجتها الجمعية فى عهد الشيخ الشاذلى بن المكى .

ولما حانت الفرصة المناسبة برزت الجمعية من جديد بعد انتخاب هيئة ادارية لها فى شهر افريل 1946 برئاسة الشيخ احمد بوروح ، وقد اسندت رئاستها الشرفية فى هذه المرة الى الطاهر بن عاشور شيخ الجامع الاعظم وفروعه .

وقد كانت هذه الهيئة بمثابة الهيئة الوقتية ، اذ ان القانون الاساسى للجمعية كان ينص على تجديد الهيئة فى بداية شهر نوفمبر من كل سنة ، اى بعد بداية السنة الدراسية بشهر واحد ، فى دورة تمتد الى اربع سنوات . ولذا

---

(46) ولد الشيخ محمد الصادق بسيس بتونس العاصمة ، وتوفى بها يوم 19 اكتوبر 1978 ، درس بالزيتونة ، وساهم طيلة حياته فى النضال الوطنى والثقافى ، وتعاطف تعاطفا خاصا مع الطلبة الجزائريين ومع جمعية العلماء بصفة اخص ، من اشهر مؤلفاته : (خطة الحسبة بتونس) (محمد بن عثمان السنوسى حياته وآثاره) وتحقيق كتاب (النازلة التونسية).

(47) شاعر تونسى ، برز فى الثلاثينات ، وكتب عدة قصائد فى المناسبات الوطنية .

(48) (الثمرة الثانية) ص 13 .

لم تدم رئاسة الشيخ بوروح الا اشهرا معدودات ، نظمت على اثرها انتخابات جديدة اسفرت عن فوز الشيخ عبد الرحمان شيبان وتكوين هيئة جديدة من الطلبة . ولعل من أبرز ما نهضت به هذه الهيئة فى عهد شيبان هو الحصول على مدرسة لاسكان الطلبة الجزائريين وهى مدرسة نهج الوصفان ، ومقر لهيئتهم بنهج عبد الوهاب ، واقامة الذكرى السادسة لوفاة الشيخ بن باديس .

ثم آلت رئاسة الجمعية فى سنة 1947 الى الشيخ محمد مرازقه ، اصبح عمار النجار كاتبا عاما لها . وخلال هذه الفترة صدرت (الثمرة الثانية) التى ضمت عدة مقالات ادبية وقصائد شعرية ، ومقالات سياسية لبعض الجزائريين من الاساتذة والطلبة ، وبعض التونسيين من الساسة والشعراء . وقد اقرت هذه الهيئة الجديدة « ما كان موجودا سابقا من اللجنة الادبية واللجنة الخطابية وعملهما ونظامهما » .

ومن مآثر هذه الهيئة استحداث مكتبة للطالب الجزائرى بمركز الجمعية ، وقد « جاءتنا كتب متنوعة من المحسنين والفضلاء » كما ان من مآثرها « الادبية ايضا ابراز نشرة (الثمرة الثانية) التى هى الصورة الصادقة لنفوس الطلبة ، ومرآتهم التى تنعكس عليها قيمهم الادبية . على انها قد تكون اعظم وسيلة لان يجعل اسم هذه الجمعية (فى الاوساط) مشاعا وعلما » (49) .

واتباعا للنهج السياسى الذى سارت عليه الهيئة السالفة التى قامت بنشر (الثمرة الاولى) عندما عهدت الى بعض مفكرى الجزائر بتزكيةهذا العمل الفكرى والادبى دعت الجمعية زعيم الجزائر انذاك مصالى الحاج لان يبارك عملها بكلمة تشجيع وتوجيه ، بعد غياب راعيها بن باديس فلم ير مانعا من ذلك ، فكتب مقدمة لهذه (الثمرة الثانية) لخص فيها « دور الشبيبة المثقفة فى تكوين الحركة الوطنية بمغربنا » .

ودعا فى هذه الكلمة الشبيبة المثقفة للالتحام بالشعب لكى تكون طليعة كفاحه ، والنموذج الذى يحتذى « فالشبيبة الجزائرية التى ستصبح فى مستقبل الزمن نخبة البلاد ، ينبغى لها ان تصنع اداة كفاحها وهى على مقاعد المدارس والكليات ، وان تضرب عرض الحائط بصفة نهائية تلك الاخلاق الفاسدة التى يحاول الاستعمار ان يغذيها بها فى مكاتبه » (50) .

---

(49) (الثمرة الثانية) ص 13 .
(50) (الثمرة الثانية) ص 8 .

كما دعا مصالي الحاج في نفس المقال هذه الشبيبة المثقفة الى التاهب لقيادة الجماهير والانتصار على الاستعمار حيث الحرية والاستقلال ، بعد ان تكون قد تشبعت بروح الحضارة العربية « الشبيبة المدرسية وان كانت عزيزة بثقافتها، شريفة النفس بما اقتبسته من تاريخ الحضارة العربية يجب عليها زيادة على ذلك ان تكون في طليعة الكفاح الوطني ، وان تقود جماهير الشعب الى حيث الانتصار على الاستعمار والى حيث الحرية والاستقلال » .

وكما هي العادة فان الطلبة الذين كانوا يشعرون بالمسؤولية المناطة بعهدتهم ويتطلعون الى اليوم الذي تتحرر فيه بلادهم من نير الاستعمار البغيض ، كان عملهم يتلخص بصورة اساسية في التاكيد على حرية الجزائر وتطلعاتها ، ولم يكن من المستغرب ان يرفعوا اليها ثمرة هذا العمل المتواضع مثلما رفع السابقون ثمرتهم الاولى فصدروا نشريتهم بكلمة الى الجزائر : « الى التي شع عليها بصيص من الامل ، فاستيقظت ، وهب عليها نسيم الحياة فانتعشت وتطلعت ، وانجبت ابناء بررة فعزت وعظمت ، الامة الجزائرية العربية المسلمة ، نهدي هذه النشرية المتواضعة عنوانا على بر ووفاء ، وتضحية وولاء » .

ورغم الازمة المالية التي واجهتها هذه الهيئة ، والعجز الذي اشتد بها في هذا الظرف الصعب الذي كان فيه الناس يكابدون مخلفات الحرب الكونية ، ويضطرون الى أكل الحشائش والدقيق المر فقد عز عليها ان ترى الطلبة الجزائريين الذين كانوا يقدمون من الاصقاع البعيدة من الصحراء ، ومن غير الصحراء يعودون القهقرى ، ويضطرون للرجوع الى أوطانهم خائبين بسبب فقدان المسكن والقوت ، ولان الجمعية عجزت عن تأمين أقل ما يجب تأمينه لهم.

في هذا الظرف العصيب لجأت الجمعية الى تجنيد طاقتها ، وابتكار مختلف الطرق للحصول على المال بأية وسيلة ، ومجابهة الاوضاع بشجاعة ، فاستقر الامر « على تمثيل رواية لفائدة الطالب في بعض المدن الجزائرية » ..

« مثلت الرواية وتحصلنا على مبلغ عظيم من المال ، كما تحصلنا على شيء لم يكن في الحسبان ان نتحصل عليه وهو اعجاب الامة بالطالب الزيتوني على مقدرته الفائقة في هذا الميدان . بعد أن كان الشائع او ما استقر في الاذهان أن الطالب الزيتوني لا يستطيع أن يعمل الا فيما أوقف عليه حياته ، فأصبح بذلك محط الامال ، ومطمح الانظار ، وصارت مساعدته والالتفاف حوله على مقدار هذا الامل وعظم الرجاء » (51) .

---

(51) (الثمرة الثانية) ص 17 .

واعتبارا لما يكنه التونسيون لابناء الجزائر المجاهدين في سبيل العلم والمعرفة ، وما يعلمون عن اوضاعهم الصعبة . وتبعا لذلك التعاطف الكبير الذى يربط بين الاشقاء فى المحن والازمات اوكلت الهيئة الادارية فى شهرى جانفى وأوت من سنة 1948 الى ثلة منها القيام بسفرات الى انحاء القطر التونسى لجمع التبرعات المالية دعما لصندوق الجمعية ، وشحذا للهمم ، وتعريفا بما كانت عليه حالة الطالب الجزائرى الذى يعيش وضعا مأسويا مريرا .

جزائر الاربعينات لم تعد تلك الجزائر التى كانت تعيش فىسباتواستكانة، صامتة راضية مغلوبة على امرها . جزائر الاربعينات هى التى تعرضت فى شهر ماى من سنة 1945 الى تلك المذبحة الرهيبة الشهيرة التى ذهب ضحيتها الاف الشهداء الابرياء ، وشردت بسببها الاف العائلات ، وهام الشعب على وجهه بعد ان استبيحت أعراض نسائه ، وانتهبت ارزاقه . وهى الجزائر التى تشهد مخاضا سياسيا وطنيا ، وصراعا عنيدا مع المستعمر .

كل هذا وذاك انعكس على مستوى التفكير عند الطلبة فى هذه المرحلة ، فرأيناهم يتفوقون بوعيهم السياسى ، ونظرتهم الخاصة الى المشاكل الجديدة عمن سبقهم . فالهيئة الادارية التى كانت قد اجتهدت لابراز « الثمرة الاولى » كانت ترى قضية الجزائر من خلال وجهة نظر جمعية العلماء ، واهدافها الاصلاحية ، وصراعها ضد الطرقية والانحراف الدينى ، ومواجهة المستعمر بأسلوبها الخاص ، وهى نظرة تأخذ فى الاعتبار الظروف المحلية ، ومستوى الوعى الشعبى الذى كان متدنيا بسبب تفشى الامية ، وخمول الاوضاع السياسية عامة .

لكن الحرب العالمية الثانية هزت ركود الناس ، وفتحت العيون على المآسى المختلفة التى خلفتها الحرب، وايقظتالمشاعر علىالوان ما يسود المجتمعالجزائرى من ظلم ، ولم تلبث أن أفضت الى الصدام الدموى المعروف فى سنة 1945 ، وغيرت من أساليب الكفاح ، ودفعت النخبة الى خوض غمار العمل السياسى ، والبروز على واجهة الزعامة .

وفى «الثمرة الثانية» التى اصدرها الطلبة فى الاربعينات نلمس فى كتابات المساهمين فى تحريرها من الطلبة وعيا سياسيا ، ونفاذا للمشاكل الحادة التى يعانى منها مجتمعهم ، وحسا قوميا عربيا . فقد تناول معظم المساهمين فى

هذا العدد قضية الجزائر ومحنتها وطموح أبنائها للانتقام ، واستعدادهم للمقاومة فى اطار قومى عربى مغربى ، دون طغيان المؤثرات الاسلامية التى اتسمت بها معظم اعمال الجمعية قبل الاربعينات • فالتوحيد فى نظر هؤلاء يعنى توحيد الكلمة ، وتوحيد الصفوف لتأليف قوة ضاربة حية من افراد الشعب ، تقوم بما يمليه الواجب تجاه الوطن ، وترعى مصالح البلاد ، وتجمع القلوب على الالفة والتعاون ، والوحدة •

ان هذا هو المعنى الآخر للتوحيد فى نظر رئيس الجمعية محمد مرازقه الذى دعا فى كلمته الشعب الجزائرى الى «التوحيد الذى يشمل كل ما يكفل للامة الالفة والوحدة والتعاون على الصالح العام ، ومصالح البلاد ، ومنافع الوطن والعباد ، من توحيد الكلمة المفرقة ، وتوحيد الغاية المبعثرة ، وتوحيد المنهج الذى نسلكه الآن • هذا التوحيد الذى أعنى ، وهذا التوحيد الذى أقصد» (52)

كما تناول الطاهر ابراهيمية «مبلغ الاحساس الوطنى»(53) المتمثل فى نظره فى تأسيس الاحزاب الوطنية المنظمة تنظيما عصريا • فهى فى نظره «الامر الوحيد الكفيل بالنجاح» ، وبلوغ الغايات المراد بلوغها وهى التحرير •

ويحدد فى نفس العدد « الشاب » ثابت الازهرى أحد أعضاء الجمعية «مسؤولية المجتمع الجزائرى» فيراها عظيمة «وعبؤها ثقيل» ، وخاصة فى شعب مستعمر منكوب مثل الجزائر العربية المسلمة التى اراد قوم أن يفرنسوها ، وآخرون أن يهودوها» (54).وهو يحصر مسؤولية النهضة فى ثلاث طبقات ، هم السياسيون والعلماء والتجار فلكل منهم دور واضح • فالسياسى بعزيمته الصادقة ، وارادته القوية ، والعالم بشجاعته وحكمته وأناته والثرى بما له من مال وقدرة على التضحية والافتداء بهذا المال •

ويرى بعض هؤلاء انالمنطلقاتالاساسة لهذا التحرير لا تتم الا فىاطار قومى عربى ، وانطلاقا من وحدة مغربية صامدة ، فبذلك أوصى عبد الحميد بن باديس الذى دعا الى وحدة «الشعوب العربية» وكانت الوحدة غاية ما يتمناه ، لانه كان يرى فيها آمالنا العزيزة التى نرجو أن تحقق على أيديها •

---

(52) الثمرة الثانية ص 56 •

(53) الثمرة الثانية ص 70 •

(54) الثمرة الثانية ص 82 •

فلا عجب بعدئذ أن نضع فيها ثقتنا القوية رجاء أن تعيد ما اندثر لنا من مدنيات ، وتجلو ما غمض عنا من تاريخ تراكمت على سجلاتـه الاوسـاخ ، وغشاها الغبار والتراب (55) • ولكن العروبة تقتضى من الشباب الكفـاح ، والاستماتة فى المناضلة من أجل التحرير ، لا تحرير الجزائر فقط ، وانمـا تحرير العروبة فى الجزائر أو تحرير جزء من الاقطار المغربية يكون مرتكزا الى التحرير الشامل .

ولتحقيق هذه الغاية لا بد من التحام الشباب ببقيةالفئاتالاجتماعيةالاخرى التى لها دورها خصوصا فئة العلماء الذين يحاولون التفصى من مسـؤولياتهم الوطنية بدعوى أنهم اكبر من السجون ، واسمى من التضحيات •

ولعل هذا التصور هو الذى حدا بالشيخ ابى القاسم البيضاوى الذى توجهت اليه جمعية الطلبة بسؤال «عما يجب أن يعمل به مسلمو الشمال الافريقى» حدا به لان ينبه العلماء الى هذا الخلل فى لحمة الكفاح ، ويدينهم ادانة صريحة بسبب تهربهم من أداء الواجب الوطنى ، والقاء العبء كله على كاهل الشباب الذى ما يزال غضا يافعا ، متسائلا فى هذا الصدد بقوله : «كيف يسوغ ان يذهب الشباب من كل الطبقات الى السجون والعذاب والموت ، وينجو العلماء منه ويخشون ذلك • ومع هذا يرون أنفسهم أجل وأعلى من اولئـك الابنـاء الابطال • بل يرون ذلك الشباب متهورا جاهلا لا حكمة عنده ولا عقل له» (56)

لقد كان لهذه الثمرة الثانية ، دونما جدال مضمون يختلف كل الاختلاف من النواحى السياسية والاجتماعية عن المضمون الذى قدمته «الثمـرة الاولى» التى اقتصرت آنذاك على اثارة الحوافز والمشاعر ، ودفع الطلبة الى التفكيـر الايجابى ، وحثهم على سن الطرق الكفيلة بتوحيد صفوفهم ، وربط مصيرهم بما يحدث فى الجزائر ، اذ أظهرت هذه الثمرة مدى جدوى وأهميـة العمـل السياسى اذا أحكم استغلاله بين صفوف الطلبة الذين يمثلون ضمير الامة ، وروحها الوثابة ، وقدراتها الخلاقة •

ان عشر سنوات بين صدور الثمرة الاولى وصدور الثمـرة الثانية كـانت كفيلة بأن تعكس كل التطورات التى مرت بها الجـزائر ، وتبلـور النضـج

---

(55) الثمرة الثانية ص 80 •

(56) ابراهيمى محمد (ابن باديس ووحدة الشعوب العربية) الثمرة الثانيـة ص 80 •

السياسي والفكري الذي أصبح عليه الطالب الجديد الذي عاش أحداثا جساما على المستويين المحلي والعالمي · ولم يعد يفكر الا في تحرير وطنه ، فهو واقعه وحلمه وأمنيته الغالية ·

وفي هذا الصدد لم نر أي فارق في التفكير أو مستوى النضج والوعي بين مختلف درجات الطلبة وسنواتهم العلمية ، فالطالب في السنة الاولى لا يختلف من حيث النظرة السياسية عن أي طالب آخر يفوقه في السن أو الرتبة ·

ومثلما رأينا طلبة السنوات المتقدمة يطرحون وجهات نظرهم من خلال منظور وحدوي ووطني مغربي عربي فان طالب السنة الاولى من المرحلة الثانوية كان لا يحلم الا بالتحرير الكامل ، ولا يرى الجزائر الا وهي ثائرة لا تكاد تخمد لها ثورة حتى تليها ثورة أخرى في مواكب متلاحقة من الثورات التي تهدف الى غاية واحدة وهي تحقيق النصر ، وطرد المستعمر ·

ففي « ليلة غدافية الاهاب ، حالكة الجلباب » رأى مولود قاسم ـ التلميذ بالسنة الاولى من التعليم الثانوي الزيتوني ـ الاجانب يهاجمون أمة عزلاء ، ويلقون القبض على أميرها الاول ثم أميرها الثاني ثم الثالث،وقد اتحدت قوى المستعمر مع قوى الخيانة · ثم ما هي الا ثورة حتى أتى الشعب على كل شيء وحرر نفسه من قيود الاستعباد ، وأطاح بالاستعمار وبالخيانة معا ، وجوزي كل مخلص بالسيادة في وطنه بفضل جهاده ، وسعدت الامة بحكومتها المستمدة نفوذها من ارادة الشعب ، وسعدت الحكومة بأمتها المطيعة المنقادة ·

فنحن على كل حال لا نشك في أنهم لم يخلوا بهذا الواجب المغربي الشامل الذي يستوي فيه الجزائري والتونسي والمغربي ، لان اعمال بن باديس الاحيائية الاصلاحية انما يجنى ثمرتها كامل شمال افريقيا» (58) ·

(للبحث صلة)

د· محمد صالح الجابري

---

(57) (الثمرة الثانية) ص 11 ·

(58) مجلة (المباحث) 25 افريل 1946 ص 14 ·

موال الموسم القادم

إبداع : محفوظ الزعبي

أعرف جنائن صوتك الدافىء
عند التوهج الذى يغذينى
ويزرع شواطئه النابضة
فى لون فصولى
تمتزج الاضواء بالاضواء
فأستعد للتعانق والالتحام
تحت رذاذ النشوة والانتفاضة
أختزل كل المسافات التى تحجزنا
مسافة ، مسافه
فى الصحوة التى تجاوبنى
مع السنابك المثيرة
إنه إيقاع الصهيل الراكض
مع الرياح الطيعة
يضاجع الصحارى
ويمتطيها للغسيل
يسقط بكارتها الفجرية
من رحم الشمس التى لا ينضب
لأن لجج البحار
ترتجف فى عدها التنازلى
والسيف يتكهرب
مع الخيول المتوثبة ...

* * *

تلهث الشواطىء
بلا نهاية
تتفرج الأرحام فيها
لا خوف على اللجة الحبلى
فالموج يستعل بالومض الشفيف
يتقد بألق الكواكب المستحمة
فى أبعد القرار
من يعرف أن الكواسج قد أخبرتنى
عن ذلك السر القديم ؟
من يعرف أننى عالجت أقفاله
عند التيقن
لأفتح كل الصدفات ؟
أقرعها لتلتهب أكثر ...
تتكشف البحار أمامى مضاءة
شفافة الأعماق
ينفعل صوت البحار والبحار
منبعثا من صلبها الجاهز للمخاض
أندهش بين الحقيقة والالتباس

لا .. أبدا !.. هي الحقيقة
« الخضر » يزحف بالوشاح
في بداية البداية ...

* * *

حين تسافر الشاعر
تحن لأرز الجبل الحالم
تكتسح الخريطة التعبى
تشهد تاريخ المدن الناهضة
مع رياح الفجر والآذان ..
حين يسافر الجميع
على مراكب الفرات
والنيل ، الى الاطلس الثائر
ينفجر البركان ...
يهدر « مجردة » العربي
يفتح أهدابه للمحيط والخليج
يطبع قبلات ثغره الكبير
يغدقها بالعشق والموال ...
حين تنبئني الاشياء والاشياء
عن النواعير العجيبة
تفتل خيوط الجسد المشطور
تضمد شروخه
ليستفيق على حمحمات الخيول
ينبلج إيقاعها مع الاريج
في الموعد المذهل
أصير يا وطني
أكبر وأكبر ...

محفوظ الزعيبي

من مكتبة الأدب التونسي الحديث

من وحي الفكر	محمد مزال
قضايا	البشير بن سلامه
الأدب الذهني	علي الدب
في دروب الفكر	محمد مزالي
الكرنوبسكلوجيا	الشاذلي الساكر
مواقف	محمد مزالي
البحر ينشر ألواحه	د. محمد صالح الجابري

أثر شوقي وحافظ في ابراهيم طوقان

بقلم: د. يوسف بكار
(الأردن)

- 2 - (*)

وتقف قصيدة « الشاعر المعلم ـ 126 » (1933) المشهورة « معارضة » صريحة بالمفهومين الفني التمهيدي والمضموني لقصيدة شوقي « العلم والتعليم وواجب المعلم ـ 1 : 18 » . فهي رفض ، من موقع التجربة والعمل ، لأكثر مضامين الشوقية وأفكارها ونقد لها بشيء من الغضب والألم المشوبين بالفكاهة العذبة والسخرية المرة ، اذا ما أنعم النظر في أبياتها الأربعة الأولى خاصة ، وفي ما تنم به للفظتان «أقعد» و «يفلقني» وتوحيان به وتدلان عليه في الاستعمال « المعجمي » والتداول « الشعبي » ، فضلا عن أن «أقعد» ابراهيم تجوز « المطابقة اللفظية » لـ « قم » شوقي الى الضدية المعنوية المتعمدة (39) التي تعبر مع عناصر القصيدة الأخرى بشدة عن برم ابراهيم وضيقه الشديد بمهنة التعليم ، في مراحل ما قبل الجامعة خاصة ـ مع انه كان من احسن المدرسين اقتدارا في الجامعة (40) .

(*) تابع لما نشر في « الفكر » العدد 6 ـ س 28 ـ مارس 1983 .

(39) انظر أيضا : د . زكي المحاسني ، ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب 24 ـ 26 . دار الفكر العربي ـ القاهرة ؟

(40) عمر فروخ : شاعران معاصران 37 و 39 .

شوقي يقول : وما درى بمصيبتى « قم للمعلم وفه التبجيلا »
(أقعد) فديتك ، هل يكون مبجلا من كان للنشء الصغار خليلا !
ويكاد (يفلقنى) الأمير بقوله : كاد المعلم أن يكون رسولا
لو جرب التعليم شوقى ساعة لقضى الحياة شقاوة وخمولا

ومن الطريف أن تكون « الطوقانية » معارضة المعارضة » ، لأن شوقيا كان قد عارض بقصيدته « لامية » المتنبى المعروفة فى « بدر بن عمار مع الأسد » . (41) .

فى الخد أن عزم الخليط رحيلا مطر تذوب به الخدود محولا

أفكانت قصيدة المتنبى تطوف على ابراهيم ، وهو يعارض الشوقية ؟ مهما يكن الجواب ، فالشاعران ، وحافظ ابراهيم معهما ، من عشاق المتنبى وأتباع مدرسته فى الشعر .

وأكاد أزعم أن تشابه هؤلاء الشعراء المعاصرين الثلاثة فى النظم فى المناسبات والموضوعيات ، وخاصة فى الرثاء بالتسلل من الموضوع الأصل الى مسائل وقضايا وطنية وسياسية واجتماعية يرتد ارتدادا عكسيا الى صلتهما الفنية الاتباعية بأبى الطيب الذى كان يتسلل ، بكثرة ، الى نفسه يمدح ويفخر ، ويغادر الموضوع الذى أقام عليه قصيدته ، وان يكن ثمة من يذهب الى أن هذه الظاهرة فى شعر ابراهيم طوقان سبيل من سبل انتحائه أمير الشعراء (42) .

ورثى شوقى سعد زغلول (1927) بهائية طويلة عدتها أربعة وتسعون بيتا (3 : 174) . ثم رثاه ابراهيم طوقان بدالية فى خمسة وأربعين بيتا (الديوان 50) لم يفلت فى أن يتأثر فيها بشوقى ، ولم يقف تأثره عندها ، انما تعداه الى « نسر الملوك ـ 138 » (1933) التى رثى بها فيصل الأول ، والتى وافقت الشوقية فى الوزن /الكامل ، وخالفتها فى الروى .

وقد يكون طول مرثية شوقى وتشعبها فى الاستقصاء هو الذى ضيق مجال التأثر وجعله يقف عند الأفكار والمضامين العامة التى قد تتواردفي مثل هذا

---

(41) ديوان المتنبى 3 : 349 (شرح البرقوقى) . دار الكتاب العربى ـ بيروت ؟ .
(42) عمر فروخ : المصدر السابق 129 .

الموقف وتتشابه . فلما أراد شوقى – وكان يصطاف بلبنان ، أن يبين وقع الفجيعة وما رافقها من صنوف الحيرة والدهشة والعزاء فى أنحاء من بلاد العرب – قال :

سائلوا زحلة عن اعراسها هل مشى الناعى عليها فمحاها ؟
عطل المصطاف من سماره وجلا عن ضفة الوادى دماها
فتح الأبواب ليلا (ديرها) والى (الناقوس) قامت بيعتاها
صدع البرق الدجى تنشره أرض سوريا ، وتطويه سماها
يحمل الانباء يسرى موهنا كعوادى الثكل فى حر سراها
عرض الشك لها فاضطربت تطأ الآذان همسا والشفاها

لقف ابراهيم الفكرة فمد فيها وجزر ، اذ سحب شدة وقع الفجيعة على الشرق كله مثلما فعل حافظ ابراهيم فى رثائه سعدا (7 أكتوبر 1927) :

جزع الشرق كله لعظيم ملأ الشرق كله اعجابا (43)

---

(43) ديوان حافظ 2 : 218 (طبعة دار العودة – بيروت المصورة عن طبعة مصر) . وقد أشار حافظ فى قصيدته الى زلزال نابلس ، ربما لأن سعدا كان قد تبرع لمنكوبيه بمائة جنيه :

قل لمن بات فى فلسطين يبكى : ان زلزالنا أجل مصابا
قد دهيتم فى دوركم ودهينا فى نفوس أبين الا احتسابا
فقدتم على الحوادث جفنا وفقدنا المهند القرضابا

(الجفن : غمد السيف . القرضاب : القطاع) .

وكان ابراهيم طوقان قد أشار قبله (27 ايلول 1927) الى تبرع سعد ، فقال :

(عيبال) منذ تزلزلت أركانه ما انفك يسعده نداك ويسعد
عزيته بمصابه ، ووصلته حسبى عزاؤك نعمة لا تجحد
جود ختمت به الحياة وانه لختام ألف صنيعة لك تحمد

وحصر الشك فى موت سعد عليه وحده ، وان لحده باليقين بعد :

هل كان سعد ، كما علمت من الورى ... فيموت ؟ كلا ، ان سعد لأوحد !
هبت عواصف نعيه مصرية ... فاذا بها شرقية تتمرد
وارتبت فى الأقدار ليلة نعيه ... ولحدت ريبى يوم قيل سيلحد
يا سعد يا ابن النيل رنق ماءه ... ثكل البنين ، وهل كسعد يولد ؟
مصر ، التى فقدتك ، قلب خافق ... والشرق أضلعه التى تتوقد

غير أن تأثير القصيدة عينها فى رثائه الملك فيصلا أخفى وأدق وأبرع . فشوقى بدأ مرثيته بصيغة (جمع الغائب) مشبها المرثى بالشمس :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها ... وانحنى الشرق عليها فبكاها

أما ابراهيم ، فبدأ مرثيته بالخطاب مشبها فيصلا بالشمس أيضا :

شيعى الليل ، وقومى استقبلى ... طلعة الشمس وراء الكرمل
واخشعى ، يوشك أن يغشى الحمى ... يا فلسطين ، سنى من فيصل

والبيت الثانى ، على ما فيه من روعة وجمال ، يظل ظلا لبيت شوقى :

خطر النعش على الأرض بها ... يحسر الأبصار فى النعش سناها

ولم يفت ابراهيم فى نفحاته الدينية أن يلم بنبويات شوقى ويعرج عليها متأثرا بها فكرة وموسيقى وصياغة . فقصيدته « شريعة الاستقلال ـ 172 » (1935) تنحو نحو « همزية شوقى النبوية » (الشوقيات 1 : 34) فى موسيقاها الظاهرة وزنا (الكامل) ورويا (الهمزة) . ان مطلع همزية ابراهيم والبيت الذى يليه :

يوم بداجية الزمان ضياء ... وبهاؤه للخافقين بهاء
يزجى النسيم به هجير لافح ... عجبا ! وتبسط ظله الصحراء

ينظران الى مطلع الشوقية وبيتها السابع عشر :

ولد الهدى ، فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء
يوم يتيه على الزمان صباحه ومساؤه بمحمد وضاء

ويكاد قول ابراهيم :

نزل الكتاب على النبيء محمد ما يصنع الخطباء والشعراء ؟

يكون بيت شوقي :

أنت الذى نظم البرية دينه ماذا يقول وينظم الشعراء ؟

ومثلما تفنن شوقي فى تكرير « اذا » شرطية أربع عشرة مرة تكريرا نغميا لا يخلو من عناصر تقوية المعاني الصورية التي تواكب الجو العام للقصيدة (44) ، ليعبر بها عن صفات النبيء (ص) ومحامده فى مثل قوله :

واذا عفوت ، فقادرا ومقدرا لا يستهين بعفوك الجهلاء
واذا رحمت ، فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء

نحا ابراهيم طوقان المنحى نفسه ، فكرر « اذا » فجائية تكريرا مماثلا فى الموسيقى والغرض ، ليصور التحول الذى آل اليه العرب والناس عامة بعد أن شرفهم الله بالاسلام وأرسل اليهم النبى الأكرم بفرقان منزه عن كل باطل . وأفاد من « من » الجارة البديلة ، فازداد النظم متانة والمعنى قوة ، والموسيقى نغمة جديدة تتردد بين الصدور والاعجاز :

واذا الرشاد من الضلالة والعمى ومن الشقاق تآلف واخاء
واذا من الفوضى نظام معجز وقيادة وسيادة ودهاء
واذا الخيام قصور أفلاك الورى واذا القفار دمشق والزوراء

---

(44) راجع فى نوعى التكرير هذين ، التكرير النغمي والتكرير المراد به تقوية المعاني الصورية : د . عبد الله الطيب المجذوب ، المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها 2 : 45 ـ 98 البابى الحلبى ـ القاهرة . الطبعة الأولى 1955 .

وأما حافظ ابراهيم ، فترك فى شعر ابراهيم طوقان آثارا ولمحات تتفاوت وضوحا وتلويحا ، وتسير ، تقريبا ، فى خط تأثير شوقى ولمحاته .

فقصيدة « ملائكة الرحمة ــ 29 » (1924) الطوقانية :

بيض الحمائم حسبهنه   أنى أردد سجعهنه

التى كانت من بدايات شعره الناضج ، وكانت ، فيما تقول فدوى طوقان ، أول قصيدة لفتت اليه الأنظار فى لبنان ، لكثرة ما تناقلتها الصحف والمجلات وما حظيت به من تعليقات وتقريظ واطراء ، هذه القصيدة نظمها متحديا قصيدة حافظ فى مظاهرة السيدات المصريات فى ثورة 1919 (الديوان 2 : 87) :

خرج الغوانى يحتجبـ   ـن ، ورحت أرقب جمعهنه

والقصيدتان من مجزوء الكامل ، وعلى روى (النون) وموضوعهما متفاوت فى ظاهره ، واحد فى جوهره ، لأنهما تلتقيان فى ابراز ما كان للمرأة العربية فى الربع الأول من هذا القرن ، من سهمة فى ميدان السياسة والاجتماع ، وتلتقيان ، على ما فيهما من صور بيانية جميلة ، فى الأسلوبية التقريرية ، وفى رسم الصور الواحدة التى عدل فيها ابراهيم طوقان ووسع اطارها فغدت أشمل وأعمق وأبعد مدى . فالصورة البيانية البسيطة المألوفة (مثل الكواكب يسطعن وسط الدجنة) فى قول حافظ :

خرج الغوانى يحتجبـ   ـن ورحت أرقب . جمعهنه
فاذا بهن تخذن من   سود الثياب شعارهنه
فطلعن مثل كواكب   يسطعن فى وسط الدجنه

أضحت صورة مركبة متحركة تترى عند ابراهيم :

مهلا ، فعندى فارق   بين الحمام وبينهنه
فلربما انقطع الحما   ئم فى الدجى عن شدوهنه
أما جميل المحسنا   ت ، فى النهار وفى الدجنة

وتجىء قصيدة « كارثة نابلس ـ 48 » (1927) التى تقيل فيها طوقان بعض خطى حافظ فى « زلزال مسينا 1 : 215 » (1908) شاهدا على ما كانت تحدثه بعض قصائد حافظ من رعشة وزلزلة فى نفسه لا يقوى ، بعد أن تستقر فى الذاكرة ، على منعها من التوزح والانتشار فى ثنايا قصائده ، ولكن بطريقته هو كما رأينا فى القصيدة السابقة .

القصيدتان من الخفيـف التام ، لكنهما تختلفان فى الروى . والطوقانية تنبىء عن أن صاحبها استوعب لوحات الحافظيـة جيدا ووعاها ، ثم رسم ، بوحيها مشاهد قصيدته . فكما أبدع خيال حافظ صورا تشخيصية متحركة سريعة ، حاول ابراهيم بالطريقـة نفسها أن يرسم مشهد « زلزال الأرض » فى نابلس ملونا ببعض الصور والمعانى القرآنية ، يقول حافظ :

ما (لمسين) عوجلت فى صباها ودعاها من الردى داعيان
ومحت تلكم المحاسن منها حين تمت آياتها ، آيتان (45)
خسفت ، ثم أغرقت ، ثم بادت قضى الأمر كله فى ثوان
وأتى أمرها ، فاضحت كأن لم تك بالأمس زينة البلدان ..
بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلى حقدا عليها فتنشق انشقاقا من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجما وقذفا بشواظ من مارج ودخان (46)
وتسوق البحار ردا عليها جيش موج ، نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسود اللون جون وهنا الموت أحمر اللون قانى
جند الماء والثرى لهلاك الخلق ، ثم استعان بالنيران
ودعا السحب عاتيا ، فامدته بجيش من الصواعق ثانى
فاستحال النجاء واستحكم اليأس ، وخارت عزائم الشجعان

---

(45) آيتان : زلزال الأرض والفيضان .

(46) مارج : شعلة ساطعة ذات لهب شديد .

ويقول ابراهيم طوقـــان :

بلـد كـان آمنـــا مطمئنـــا   فرمـاه القضـــاء بـالزلـــزال
هـزة إثـــر هـزة تـركتـــه   طلــلا دارســا مــن الأطــلال
مادت الأرض ، ثم شبت وألقت   ما علــى ظهرهــا من الأثقــال
فتهـــاوت ذات اليميـــن ديـار   لفظت أهلهــا ، وذات الشمال
بعجاج تثيـره ، تــرك الدنيـا   ظلاما ، وشمسهـا فى الــزوال
فاذا الدور ، وهى اما قـبـور   تحتهــا أهلهــا ، واما خــوال
وأرق النسـيـم لـو مـر بالقا   ئم منهـا لدكـه ، فهـو بـال

ومثلما تخيل حافظ ابراهيم صور الفزع والذعر والموت والتقتيـل ومـا أعقبها تخيلا دقيقا بارعا وكأنه يراها ، صور ابراهيم طوقان ما رأى وشاهد وسمع من هذه الصور بشىء من التفصيل . يقول حافظ :

رب طفـل قـد ساخ فـى باطن الأر   ض ينـادى : أمـى أبـى أدركـانـى
وفتـاة هيفـاء تشـوى علــى الجمـ   ـر ، تعـانى من حـره مـا تعـانى
وأب ذاهـــل الـى النــار يمشـى   مستميتـــا تمتـد منــه اليـــدان
باحثـا عــن بنـاتـــه وبنيــــه   مسـرع الخطو ، مستطير الجنــان
تأكـل النــار منــه ، لاهـو نــاج   من لظاهـا ، ولا اللظى عنه وانـــى
غصـت الأرض ، أتخم البحـر ممــا   طـويـاه مــن هـذه الأبــدان

ويقول ابراهيم طوقـــان :

مـن وحيــد لأمـه وأبيـــه   جمعـوه مفـرق الأوصـــال
ومكـب علـى بنيه بوجـه   خلط الدمع بالثرى المنهـال
وفتـاة لاذت بحقـوى أبيهـا   جزعا ، وهـو ضارع بابتهـال
وحريص رأى ابنه يسلم الرو   ح قريبـا منه بعيد المنال (47)

---

(47) الحريض : الساقط الذى لا يستطيع النهوض .

خسفت البيت بالمريض ، ومن   عـاد ، وبالمحصنـات والاطفـال
قد رأينا فـى لحظـة وسمعنـا   كيف تلهو المنون بالآجـــال
ههنا نسـوة جيـاع بلا مـأوى   ستـرن الجسـوم بالأسمـــال
ههنـا اسـرة تهـاجـر ، والغـ   ـم بديل الاثـاث فـوق الرحال
ههنـا مبتلـى بفقــد ذويـــه   ههنـا معدم كثيـر العيـــال
ملأ الحـزن كل قلـب واودت   ريـح يأس بنضـرة الآمـــال

ومع ان ابراهيم طوقان نبت من « أرض يجيش باطنها بالأحداث ، ومجتمع تكمن فيه البذور الثورية باستمرار » وأضحى بعد « الثـلاثـاء الحـمـراء » خاصة « صوت الانسان الفلسطينى الذى التحم وجدانه الوطنى والاجتماعى بالواقع المرفوض » فليس ببعيد ان يكون ما فى شعره السياسى والـوطنى من اسلوب السخرية والتهكم بالمستعمرين والمتخاذلين من بنى وطنه صـدى للأسلوب التهكمـى الساخر اللاذع الذى كـان يلجأ اليـه حافظ فـى شعره السياسى والوطنى خاصة فـى قصيدة حادثة دنشواى ـ 2 : 20 ـ 11 (1906) فمن مظاهر هذا الاسلوب فى شعر طوقان مثلا ، قوله من «أيها الاقوياء ـ 157» (1935) التى وجهها الى حكومة الانتداب البريطانى :

قد شهدنـا لعهدكـم بالعدالـه   وختمنـا لجنـدكم بالبسـالـه
وعرفنـا بكـم صديقـا وفيـا   كيف ننسىانتدابه واحتلاله ؟!

---

(48) فدوى طوقان : رحلة صعبة ـ رحلـة جبلية (6) . الجديد ـ العـدد (3) 1978 ، ص 21 .

(49) د. نوسة زكريا : تاريخ الدعوة الى العامية وآثارها فى مصـر ، ص 12 الطبعة الأولى 1964 . وراجع فى تاريخ الدعوة الى العاميةالبابين الأول والثانى من الكتاب نفسه و د. محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصـر 2 : 359 وما بعدها .. مؤسسة الرسالة ـ بيروت . الطبعة الرابعة 1980 .

كل أفضالكم على الرأس ، والعيـ ـن ، وليست فى حاجة لدلاله !
ولئـن سـاء حالنـا فكفانـا أنكم عندنـا باحسن حالـه !

وقوله من « أنتم ـ 163 » (1935) للزعماء الفلسطينيين وقتذاك :

أنتم (المخلصـون) للوطنيه أنتم الحاملون عبء القضيـه !
أنتم العاملـون من غيـر قـول بارك الله فـى الزنود القويه !
و (بيان) منكم يعادل جيشـا بمعـدات زحفـه الحربيـه !
و (اجتمـاع) منكم يـرد علينـا غابر المجد من فتوح أميـه !

وقد تكون « تائية » حافظ ابراهيم « اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها ـ I : 253 » (1903) التى كانت صرخـة فى وجه الأجانب وأشياعهم ممن سعـوا جاهدين بوسائل شتى الى أن يحلوا « العامية » محل « الفصيحة » ، لأسباب سربلوها بسرابيل العلمية والحضارة والتقدم فى حين أنها كانت « من أجـل القضاء على العربية الفصحى واحلال العامية محلها » ، قد تكون أحد العوامل التى شجعت ابراهيم طوقان على أن يقف فى أخريات حياته حين كان مراقبا للقسم العربى فى اذاعة القدس (1936 ـ 1940) وقفته الحازمة الناجحة ، وهى «تصديه لفئة غير عربية .. كانت تسعى سعيها لتنشيط اللغة العامية ، وجعلها اللغـة الغالبة على الأحاديث المذاعة (50) .

وخلاصة الأمر ، إن تأثر ابراهيم طوقان بلسـانى مصـر الناطقين ، فيما دعاهما طه حسين(51)، كان عاما فى مجمله ، وكان شوقى أظهر وأكثر وأعمق وقد انصب على قصائد من شعرهما « نمطية » معروفـة مشهورة ، فجـاء عند ابراهيم فى قصائد نمطية غدا أكثر معروفا ومشهورا ، لان أثرهما فى ما له من « موشحات » وشعر متعدد القوافى لا يكاد يبين .

---

(50) فدوى طوقان : أخى ابراهيـم 23 .
(51) حافظ وشوقى 160 . منشورات الخانجى وحمدان (القاهرة ـ بيروت ؟)

لم يكن تأثير ابراهيم احتذاء عشوائيا في كل شيء . فاذا ما استثنيت ملامحه البينة من وزن وقافية وقبسات صياغية وأسلوبية ، واستثنيت تضميناته واستشهاداته ، يظل شعاعه الابداعي وهاجا متميزا بما أدخله من أنماط التلوين والتصرف في المبنى والمعنى والموسيقى والصورة والأسلوب فأضاف الى المواد والعناصر التي ارتكزت في ذهنه من شعر الشاعرين عناصر جديدة ، تفوق فيها أم قصر ، وأبدعها جميعا خلقا آخر هو عنوان أصالته وشخصيته المبدعة حتى ليصدق عليه وينسحب أحدث الآراء في شوقي نفسه من أنه « لم يأخذ المعاني على هيئاتها في أصولها ، بل تصرف فيها . فلم تكن داخلة في شعره دخول الاستشهادات ولا دخول الاقتباسات ، وانما دخول لبنات الثقافة في تكوين الانسان الذي لا يحاسب على تبعية في الاستظهار بها ، بل ينظر الى مدى توفقه في تكييفها لينطلق في بنائه الشخصي (52) .

---

(52) محمد الهادي الطرابلسي : خصائص الأسلوب في الشوقيات 254 منشورات الجامعة التونسية ـ تونس 1981 .

مِنْ سفينة الحكمة

نظم : عبدالله الزناد

صوت الاديب

صارم ما نبا وحد نضير   وسناء فى جبهة الدهر نور
ذاك صوت الاديب فى كل حين   بلبل صادح وبحر يثور

* * *

التدبر

اذا تدبرت فى الاكوان تدرسها   وحكمة الله ترويها وتحويها
ونلت حظك من فرض تقوم به   حزت فى الناس تعظيما وتنويها

* * *

الأريحية

الاريحية تأبى الكبر والبطرا   وتكره الظلم والبغضاء والاشرا
فالاريحى له نفس تؤهله   للمكرمات ولو جرت له الخطرا

* * *

مجالس العلم

مجالس العلم فاحضرها وكن فطنا   حضور بحث وانصات وتحصيل
ففى بساتينها علم ومعرفة   وشحذ فكر بآيات وتنزيل

* * *

رضاء الوالدين

إن طلبت الرضا وتفريج كرب   فرضا الله فى رضا الآباء
فاحترم والديك واسلك طريقا   بك تفضى لجنة علياء

* * *

زخرف القول

قد تخدع المرء أقوال مزخرفة   وزخرف القول فيه الزور والكذب
فاجعل لنفسك ميزانا يبين به   لصاحب الرأى حد الجد واللعب

مطالعات



البشير بن سلامه روائيا

د. محمد عبازه

لقد رأينا الاستاذ البشير بن سلامه ناقدا ومفكرا ، ولكننا هنا أمام البشير بن سلامه وهو يطرق بابا جديدا من أبواب الكتابة الادبية ألا وهو الرواية وكما نعلم جميعا أن المكتبة العربية في تونس ما زالت تعاني نقصا — إن صح التعبير — في هذا الفن من الفنون الادبية اذا ما قارناه بالشعر أو بالقصة القصيرة . وكما أن البشير بن سلامه متمرس بالنقد قبل أن يلج باب الخلق والابداع وجب علينا الاعتناء بهذه الباكورة من نتاجه الروائي عسى أن نكتشف فيها إضافات جديدة الى الرواية التونسية كما وكيفا وسوف نرى الى أي مدى وفق الاستاذ بن سلامه . لكن قبل أن أشرع في دراسة العمل نفسه لا بد لي من ابداء ملاحظات أولية .

① أنا قارىء ولا أدعى الاستاذية في النقد والتقويم قرأت الرواية ثلاث مرات وخرجت بهذه الآراء والافكار التي سجلتها على هذا العمل الروائي .

② والملاحظة الثانية قادتني الى تساؤل أسجله هنا وهو هل كانت «عائشه» ستثير الضجة التي أثارتها لو لم يكن المؤلف البشير بن سلامه **الوزير** ؟ واترك الجواب الى كل من شارك في هذه الضجة .

والآن لندخل الى الرواية ذاتها ونبدأ باعطاء القارىء تلخيصا لا يغني طبعا عن قراءة الرواية ذاتها **فهو** كأي تلخيص يشوه — اذا أردتم — طبيعة العمل الروائي .

تتحدث « عائشه » عن شاب نزح من الريف الى المدينة هربا من سطوة والده ومن سطوة مدير مدرسته ممثلا لقوى الاستعمار . وصـل الطـاهر الى تونس وتقلب فى العديد من الاعمال الصغيرة لكن سرعان ما غادرها . لكن أباه كان يعرف أحد كبار الاعيان فى تونس وعرض عليه خدمة الطاهر لكى يقوم له بأمر ضياعه وتجارته . ونجح الطاهر فى عمله الجديد أيما نجاح ونال اعجاب سيده « الفريك مصطفى » وابنه عادل وابنتـه زبيـده (استبناهـا « الفريك مصطفى » بعد أن فقدت أباها وأمها) . دخل الطاهر القصر وغرق فى المطالعة وقراءة الكتب المتوفرة فى مكتبة « الفريك مصطفى » أصبح يناقش عادل فى الادب والسياسة والاجتماع وتعجب به زبيده فيتزوجها وينجبـان « عـائشه » . واثر خلاف مع « الفـريك » يغادر الطاهر القصر مع زوجتـه وابنته « عـائشه » ويكترى بيتا صغيرا ويتحصل على عمل فى وزارة المالية بمساعدة « الفريك » مصطفى . ينقطع الطاهر للعبث واللهو والمجون ويتزوج امرأة ثانية لها ولدان وبنت وتأتى الحرب العالمية الثانية فيقرر الطاهر العودة الى قريته صحبة أبنائه وزوجته وتدخل عائلته فى صراعات داخلية لا حدود لها ولا يستطيع الطاهر السيطرة عليها رغم طغيانه وجبروته فتخونه زوجته الثانية مع ابنه الناصر « المشكوك فى نسبه اليه » بعد أن خـانته الاولى مع عادل ابن « الفريك » مصطفى وتسقط ابنته « عـائشه » فى احضان ربيبـه سالم فيفتض بكارتها وبعدها يزوجها من خالد الضابط فى الجيش الفرنسى دون أن يدرى من أمرها شيئا ويكتشف خالد الامر فيشل ثم يموت وتفقـد « عائشه » عقلها ثم تزف الى شيخ تجاوز السبعين وتسقط « عائشه » مرة ثانية فى الرذيلة مع ابن أخى زوجها وتقضى « عائشه » نحبها متأثرة بالسل .

موضوع الهجرة من الريف الى المدينة ، موضوع طرقه العديد من الباحثين الاجتماعيين زيادة عن الروايات التى صدرت فى هذا المجال ونخص بالذكـر منهم العروسى المطوى ، ومحيى الدين بن خليفة ، وعبد القادر بن الشيخ . كلهم ألفوا فى موضوع الهجرة التى أصبحت مشكلة من مشاكل العالم المعاصر ولكن بطل البشير بن سلامه لم يستطع التأقلم مع المجتمع المدينى فقفل راجعا الى قريته .

وأول ما يصادفنا فى هذه الرواية هو تلك النفحـة الـوجودية التصوفية للبشير بن سلامه حيث أشار بوضوح الى نزعته تلـك فى مقـدمة الـرواية بقوله : « « عائشه » هى رواية قائمة الذات اشخاصها يتحركون فى **الحيـاة و المـوت** ، فى **السفر** و **الاقامة** ، فى **الشقاء** و **السعادة** ، فى **اللذة و الألـم** ضمن رباعية عنوانها « العابرون » كل هذه الكلمات والالفاظ المتضادة ليست غريبة عن المعجم الصوفى سواء عند الحلاج أو ابن عربى أو عمر الخيام الذى

يشبه فى الكثير من النواحى أبا نواس الذى ذكره الاستاذ البشير بن سلامه مستشهدا بشعره فى العديد من المناسبات (ص 159 ـ 162) .

فى الحقيقة نجد أن الرواية كاملة تتمحور حول هذه المفارقات التى ذكرها المؤلف فى مقدمة الرواية والتى يهوى البشير بن سلامه التلاعب بها (ص 171) التى ان دلت على شيء فانما تدل على التناقض الذى تعيشه النفس الانسانية عموما ونفس الروائى بصفة خاصة ، فالموت والحياة ، السفر والاقامة ، الشقاء والسعادة ، اللذة والألم لم تغب عن احدى هذه الكلمات أو مرادفا لها عن صفحة من صفحات الرواية وحتى وان لم تذكر صراحة فانها حاضرة فى كامل الرواية ، ويكثر الاستاذ من استعمال جملة الفناء فى اللذة وبالنتيجة قادتنا هذه العبارات الى اعتبار البشير بن سلامه وجوديا متصوفا « انها نبدو له وكانها الغراب فى هجومه على الجسم الذى فارقته الروح ينهشه نهشا ويحيله عظما ، لكأنه القبر يحتضن الميت فينسيه بأكل لحمه ودمه عذاب الدنيا وآلام الجروح التى أثخنت الجسد » ص 16 . ومما يؤكد ما ذهبنا اليه من تأثر البشير بن سلامه بالتصوف الاسلامى ذكره صراحة للحلاج على لسان عادل فيقول : أومن بأن الله منتهى الكمال ، أنا حلاجى عندما أسرف فى الايمان بقدرة الانسان على أن يتحد مع الله فى كل شيء حسا ومعنى ... حسا فى اللذة الجنسية ، الجمالية انطلاقا من الحواس ... » ص 80 . وردت هذه العبارات على لسان عادل الذى يمثل نقيضا من تناقضات النفس الانسانية التى تعيش صراعات أبدية خاصة عندما يكون المجتمع يمر بفترة هزات وانقلابات لبعض القيم والمفاهيم مثل الفترة التى اختارها البشير بن سلامه لتكون الخلفية التاريخية للرواية . ويضيف البشير بن سلامه مؤكدا استنتاجنا فى تأثره بالتصوف قائلا : « وطلق بذلك من دون رجعة « دوجه » التى لم تتزعزع من هذا الفراق لانه فراق المادة وفراق اللذة الرخيصة» ص 89.

نحس ونحن نقرأ الرواية أن نفسية الروائى تعيش صراعا حادا ، صراعا دلت عليه تلك المفارقات والمتضادات والتى مكنته اللغة العربية لثرائها من التلاعب بمثل هذه الالفاظ ليصور بصدق العذاب الذى تعيشه النفس الانسانية التى لا تعرف الراحة والهدوء والسكينة فى واقع اجتماعى تهزه الحروب والاضطرابات الاجتماعية والسياسية والصراعات العرقية والطبقية .

زيادة عن تصوير الحالة النفسية الفردية فى معناها اللبرالى الرومنسى المتصوف ، استطاع البشير بن سلامه أن يرصد لنا حركة المجتمع التونسى ومؤشرات التحول فيه . كان يتحدث لنا عن المجتمع التونسى بدقة متناهية

فى المدينة والريف على السواء ، ففى المدينة يصف الاستاذ البشير بن سلامه بعدسة كاميرا الحياة اليومية للتجار والفقراء والهامشيين (الباعة المتجولون) ، الاسواق وهى تعج بالباعة والمشترين (ص ص 32 ــ 55 ــ 89 ــ 99 ــ 110 ــ 112 ــ 113 ــ 114 ــ 115 ــ 116 ــ 131 وخاصة عندما يحدثنا الروائى عن حي أو بيت أو قصر فانه يحسنا كاننا دخلنا المنطقة أو الحي أو البيت الذى يصفه من دقة الملاحظة التى تضاهى أحيانا ملاحظات بلزاك أو زولا أو فلوبار.

صورت لنا كذلك الرواية أوضاع الطلبة الوافدين على جامع الزيتونة طلبا للعلم من القرى والمدن التونسية ، صورت حياتهم اليومية ، سكنهم ، دراستهم ، أوضاعهم العائلية (ص 28 ــ 29 ــ 30) . فهذه البيئه لا يمكن أن تغيب عن طالب وافد أيضا على العاصمة ، واذا أراد تتبع حركية المجتمع التونسى بتناقضاتها المختلفة (ص ص 39 ــ 62 ــ 113 ــ 114) كيف يمكن لطالب قروى وفد على تونس ألا يشير الى المعتقدات الشعبية (التى تجمع بين الريف والمدينة فى حالات كثيرة) المتأصلة فى عامة التونسيين بدوهم وحضرهم ؟ وهى ظاهرة سبقه الى الاشارة اليها أغلب الروائيين التونسيين وعندما قلنا سبقه لا نعنى بالضرورة أنه قلدهم ، بل بالعكس أضاف اليها من روحه الساخرة ونكتته الخفيفة فأعطت للرواية نكهة خاصة (ص 37 ــ 50 ــ 129 ــ 137 ــ 138) . وكذلك يبدو أن السيد البشير بن سلامه على بينة كبيرة من البيئة الريفية ولا غرابة فى ذلك فهو ينتسب الى قرية من هذه القرى التونسية الوديعة التى عرفها الروائى وخبر عاداتها ، أفراحها (يتحدث لنا عن مراسم الزواج فى الساحل بدقة كبيرة ص ص 157 ــ 158 ...) وأتراحها وبذلك تحدث عنها بكل دقة وموضوعية ، وصف حالة الفلاح ، وصف جهاده اليومي فى سبيل قوته ، وصف تصرفاته ، ردات فعله وصف نفسيته وطقوسه التى يمارسها (ص ص 22 ــ 23 ــ 26 ــ 46) .

كذلك لا يغفل الاستاذ البشير بن سلامه الحديث عن الموضوع المحبب لدى الروائيين التونسيين ألا وهو الحديث عن الاستعمار الفرنسى الذى ملته الاذن التونسية ولكن ابن سلامه ــ والحق يقال ــ لم يطنب فى هذا الموضوع بل اكتفى بما هو ضرورى لتوضيح تصرفات بعض شخصياته باشارات وتلميحات صغيرة هنا وهناك لتفسير هذا الجانب أو ذاك أو لتسليط الضوء على نقطة ما توجب ذكر المستعمر وممارساته التعسفية ويكفينا أن يذكر البشير بن سلامه السبب فى جعل الطاهر يفكر فى مغادرة مدرسته والهروب الى تونس حتى نقتنع بأن المستعمر كان يمارس على الشعب أبشع أساليب الاستعلاء

والسخرية والاستغلال (ص ص 13 ـ 14) . ومن الحديث عن الاستغلال يمكن أن نتطرق الى الحديث عن التفاوت الطبقي الذي كان يعيشه المجتمع التونسي وحاول البشير بن سلامه أن يصوره لنا.لقد صور لنا الروائي هذا التفاوت بين الارستقراطية التونسية (l'Aristocratie Tunisoise) المتحالفة مع القوى الرجعية والاستعمار وبين البرجوازية الصغيرة المثقفة والزاحفة على تونس من المدن والقرى التونسية المتحالفة مع القوى العاملة والهامشيين وما تكنه كل طبقة للاخرى من كراهية وحقد وأدلتنا على ذلك أن الطاهر لما اصبح في خدمة « الفريك » (الارستقراطية) صار أضحوكة عند أصدقائه القدماء (أيام العمل) وأصبح ممقوتا محتقرا بينهم الى درجة أنهم بصقوا في وجهه كتعبير عن حقدهم على الطبقة الحاكمة وحلفائها من الرجعية والاستعمار (ص ص 40 ـ 41 ـ 42 ـ 49). لكن البشير بن سلامه لم يرد أن يبرز لنا هذا الصراع ويعمقه بل نقول وبكل أسف : إنه جعل الصراع بين الارستقراطية والفئات الاجتماعية الاخرى صراعا هامشيا على أساس أن التناقض الرئيسي وقتها كان تناقضا بين الاستعمار من جهة والتونسيين على اختلاف طبقاتهم من جهة أخرى ونسي البشير بن سلامه أن يفرق بين من كان يقف مع الاستعمار ومن يقف ضده « وماذا يكون دوره مع ابناء جلدته سوى تعلق الغريق بالغريق ؟ » ص 49 .

في الحقيقة هناك غريق وهناك متفرج ، الغريق : الفئات الشعبية وحليفتها البرجوازية الصغيرة ، وهناك متفرج : الارستقراطية أو أكثر من المتفرج اذ أنه شارك في عملية الاغراق ولكن الاستاذ بن سلامه يسوى بينهما اذ يعتبر الاثنين متساويين اذ أن الارستقراطية مشتغلة هي الاخرى من طرف الاستعمار ، قال الطاهر معبرا « الفريك » مصطفى : هذه حياة العبيد الخنوعين ، حياة العبيد المركبة : البايات عبيد الفرنسيين وأنتم عبيد البايات ، أنتم عبيد العبيد ، يا لها من حياة الذل والمسكنة ! » ص 109 . لربما كانت الطبقة الارستقراطية خاضعة للاستعمار لكنها حليفته موضوعيا ولا يمكن أبدا أن نسوى بينها وبين الفئات الشعبية المستغلة أو البرجوازية الصغيرة التي كانت في طليعة هذا النضال ضد الاستعمار وأتباعه جنبا الى جنب مع الطبقة العاملة ولا يكفينا أن يحس « الفريك » مصطفى بالاضطهاد من الباي حتى نقتنع أن هذه الطبقة مضطهدة مثل اضطهاد الفئات الشعبية أو كانت تحس احساسهم بالظلم والاستعباد وبناء على ذلك قلنا : إن الاستاذ البشير بن سلامه حاول أن يهمش الصراع الاجتماعي الذي حدث في تونس في فترة ما بين الحربين .

ومن هذا المنطلق انتهى السيد البشير بن سلامه الى أن تونس غير فاعلة في التاريخ : « تذكر أن تونس **كلها بكل** سكانها هي اليوم خارجة عن التاريخ، تعيش على هامشه ، هم أهلها أن يحصلوا على القوت ويظفروا بالبقاء فأين هم من بناء الدول وصنع التاريخ !؟ » ص 49 ، وهنا يمكن ان نتساءل عن السبب الذى جر تونس الى هذه الحالة ، لا محالة الاجابة تختلف ، فالروائى أرجعها الى الاستعمار ونحن نؤمن بأن للاستعمار دورا أساسيا فى هذا العجز ولكن حلفاءه أيضا من أرستقراطية ورجعية ساعدوه فى عزل تونس عن الفعل فى التاريخ ولكن لا ننسى أننا بفضل النضال ضد المستعمر وحلفائه استطعنا أن نؤثر فى التاريخ وما نضالات الطاهر الحداد ومحمد على الحامى وأبو القاسم الشابى زيادة عن النضالات الجماعية التى كانت موجهة الى الاستعمار وعملائه المحليين .

ضمن هذا الخضم من الصراعات والتناقضات ، ضمن هذه السلبيات التى تمزق المجتمع التونسى تلوح شخصية المرأة التونسية التى رمز لها المؤلف بـ « عائشه » شاحبة الوجه ، سلبية الى أقصى درجة ، لا تؤثر دائما ولا تتأثر أحيانا . و « عـائشه » رمز للمرأة لم يبتدعها البشير بن سلامه ففاطمه بن جدو استعملت نفس الاسم فى رواية لها بالفرنسية (لربما نتطرق فى بحث قادم الى دراسة مقارنة بين الروايتين) وبعد أن اطلعت على اسم رواية « عائشه » تذكرت أحد الشبان المغتربين فى فرنسا بعد أن تنقل كثيرا بين أحضان الفرنسيات طرح على نفسه هذا السؤال ببيت عامى عبر فيه عن حيرته التى يعيشها قائلا :

« **يا قلب يزي من الغرام وطيشه ما خيرلك جاكلين وإلا عيشـه** »

إذن « عـائشه » رمز للمرأة التونسية التى كانت تعيش وضعا مزريا فى الفترة التى تتحدث عنها الرواية ، فـاذا كانت الارستقراطية التى وصفهـا الطاهر بأنها : « عبيد العبيد » تصبح « عائشه » فى الحلقة الرابعة من حلقات العبيد : استعمـار ← بايـات ← أرستقـراطيـة ← عـامة الشعـب ← المـرأة .

وبهذا الشكل يمكن أن نصل الى تصور الاضطهاد والقمع والاستغلال الذى كانت تقاسيه المرأة التونسية ، تلك المعذبة فى الارض . (وسوف نتحدث عن هذا الموضوع باطناب عند تحليلنا للشخصيات النسائية فى الرواية) .

لكن البشير بن سلامه الذى يمتاز بدقة الملاحظة لم يهمل الاشارة الى بعض الحالات الشاذة من حالات المرأة التى كانت تقرر وتأمر وتسيطـر مثل أخت زبيده زوجة الطاهر (ص 120) .

وصفوة القول ، إن وضع المرأة فى تلك الفترة (بين الحربين) لا تحسد عليه ولعل البشير بن سلامه ركز على ذلك لكى يبين القفـزة النـوعية التى حققتها المرأة التونسية مع صدور مجلة الاحوال الشخصية التى ضمنت للمرأة حقوقها وسوتها مع الرجل فى كافة الميادين .

وبما أن المرأة كانت سلبية فى المجتمع والبيت ، أثبتت وجودها فى العماية الجنسية التى يصفها البشير بن سلامه بكل صدق ، دون تحريف أو حيـاء ويصف تقلبات المرأة فى عاطفتها ــ بحكم اضطهادها وقمعها ــ دون اى وازع دينى فتخون زوجها بكل بسـاطة وتفنـى فى اللـذة اثنـاء هـذه العمليـة الجنسية ونحس من خلال الرواية أنها تنفعل عند الخيانة اكثر من الممارسـة الجنسية مع زوجها (ص ص 41 ــ 75 ــ 149) كان القـاعدة القديمة « كل ممنوع حلو » تجد مبررها عند المرأة فى هذه الرواية .

وكما أن البشير بن سلامه أديب قبل أى شىء آخر ، تحدث لنا فى روايته عن الجو الادبى بتونس فى الثلاثينات من نقاش أدبى حول الشعر العـربى ، من أمسيات شعرية ، مقالات صحافية باختصار كل المشاكل التى كانت تهم الخلق الادبى والصدق الفنى ، والخيال الابداعى . وقد احسسنا ونحن نقـرأ بعض الشعر الذى أورده البشير بن سلامه على لسان عادل أنه يشبه شعـر الشابى (ص 66) . وبناء على ما ذكرنا فى تحليلنا لهذه الرواية يمكن أن يكون للرواية عموما دور أساسى عند الباحث الاجتماعى الذى يريـد أن يتعـرض لدراسة أوضاع المجتمع التونسى إبان الفترة التى يحددها البـاحث لتكـون موضوع دراسته . فالرواية تعين البـاحث على تفهـم بعض الاشكاليات التى يتعذر فهمها دون اعتماد الرواية التى تحدثت عن نفس الفترة ، لربما تنبهه الى أشياء يراها بسيطة أو يهملها تماما وكانت لها انعكاساتها على الاحـداث والاشخـاص .

والآن لننتقل الى تحليل الشخصيات التى أرادهـا البشير بن سلامه أن تكون حاملة لأفكاره السياسية والفلسفيـة والـدينية والاجتمـاعية ، وهى شخصيات تملأ عالم الرواية .

وسوف تكون البداية بالطاهر ، الشخصية المحورية فى الرواية، الشخصة المتعلمة فى المدارس الفرنسية والتى ذاقت أنواعاً من الاضطهاد حتى قبل أن تنتقل الى تونس ، اضطهده أبوه الطاغية المتجبر ، اضطهده مدير المـدرسة

ممثلا للاستعمار الفرنسي ، اضطهده كذلك المتعاونون مع الاستعمار الفرنسي من ضباط تونسيين في الجيش الفرنسي أو غيرهم . عند وصول الطاهر الى تونس هربا من الاضطهاد تقلب في عدة أعمال ولكن الشيء الذي أخاف والده هو قراره الالتحاق بعمال « الترامواي » وخشي أن يصبح ابنه « زوفـري » فمنع الطاهر وعرض عليه الالتحاق بخدمة أحد أرستقراطيي تـونس (هنـا نرى بحكم انتماء الطاهر الى البرجوازية الصغيرة ، ومن ميزات هذه الطبقة التذبذب والحقد على الطبقة العامة ، وهذه الذبذبة سوف تلاحق الطاهر في كل أطوار حياته) .

أراد الطاهر تسلق السلم الاجتماعي وانضم الى خدمة « الفريك » مصطفى ممثلا للطبقة الارستقراطية وقبل أن يباشر الطاهر أي شيء أدخل الى الحمام ليغسل كل قاذوراته وأوساخه التي جلبها معه « والتف أهل القصر والخدم بـ « الفريك » ... والطاهر وتوجها توا الى حمام يشبه ما عرفه من الحمامات في تونس : « بيت السخون » والمطاهر والمقصورة وغيرها ، وفهم أن القصر جزيرة تحيا حياتها بمعزل عن الناس ... » ص 53 .

وعندما دخل الطاهر القصر لاول مرة سقط ، هل هذه دلالة على أن الطاهر سيسقط يوما ما من على السلم الذي أراد أن يصعده : « إن قدمك ستنزل بك يوما يا طاهر ... انـج بنفسك ... انـج بنفسك !! » ص 42 . لقد انسلخ الطاهر عن طبقته وحاول الصعود ولكنه لن يستطيع الى ذلك سبيلا ، فالطاهر رغم معرفته لابن خلدون وتحليلاته في علم العمران ، رغم ثقافته التي تسمح له باتخاذ موقف واع من كل ما يحيط به ، اذ أنـه ينـاقش عادل في الادب والشعر (ص 66) . ويقرأ كتاب علي عبد الرازق « الاسلام وأصول الحكم » (ص 88) . رغم كل هذه الحيثيات فان الطاهر ظل على موقفه السلبي من كلا الطبقتين ، لم يحدد موقفه بوضـوح لا من الارستقـراطية المستغلـة ولا من الفئات الشعبية المستغلة بل في الاول ينحاز صراحة الى الطبقة الارستقراطية اذ أنه ينقذ « الفريك » مصطفى وهو غريق في الوحل ولعل البشير بن سلامه أراد أن يقول لنا : إن البرجوازية الصغيرة هي المؤهلة لانقاذ الارستقراطية وفعلا نرى أن أرزاق « الفريك » تضمحل بعد أن غادر الطاهر عمله في القصر ووفاة « الفريك » . فموقف الطاهر المتذبذب جعله غير فاعل في الاحـداث ، غير صانع لها ، كان متأثرا ولم يكن مؤثرا أبدا (ص ص 74 — 75 — 76 — 77 — 78) .

بل أغرب من ذلك ، إن نفسية الطاهر الوصولية جعلته يطلق ماضيه ويندمج كلية فى الطبقة التى أراد أن يصل اليها .

إن شخصية الطاهر كانت مهتزة ، غير متزنة ، تتخذ مواقف متناقضة بين الحين والآخر (ص ص 140 ـ 165) وذلك دلالة على وصوليته التى تنبه لها عادل من خلال ممارسات الطاهر (ص ص 83 ـ 84) .

وفى النهاية يقرر الطاهر الانفصال عن « الفريك » أو الهروب ـ إن صح التعبير ـ مبررا ذلك بأسباب ايديلوجية اذ أنه لا يريد أن يكون عبدا لعبيد العبيد (ص ص 100 ـ 103 ـ 110) ولكن فى الحقيقة إن سبب الانفصال كان سببا شخصيا اذ بعد عودته من جولة قصيرة فى قريته أحس أن علاقة زوجته بغريمه عادل قد تغيرت (اذ أن زبيده خانته مع عادل بعد مغادرته القصر) (ص 107) .

الطاهر شخصية لم تستطع الافلات من خالقها (الروائى) الذى أرادها أن تكون هكذا ، فلم يترك لها حرية التصرف . إن الظروف الذاتية والموضوعية تساعد على خلق شخصية نامية متطورة وليست شخصية مسطحة مثل ما رأينا . فالظروف الذاتية تظهر من خلال معاناة الطاهر للاضطهاد وهو انسان متعلم ، ازداد تعلما فى القصر وازداد احتكاكا بالطبقة الارستقراطية فاطلع على كل نقاط ضعفها عن كثب ومن الناحية الموضوعية ان الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التى يعيشها المجتمع التونسى ، كل هذه المعطيات كان من الممكن أن تخلق لنا بطلا واعيا يمثل طليعة النضال الشعبى فى تلك الفترة .

لكننا بكل أسف نرى الطاهر حتى بعد انفصاله عن « الفريك » ينغمس فى اللهو والملذات ، مما جعل منه شخصية غير مؤثرة وغير نامية فى الوقت نفسه يكتفى بالتفرج من بعيد عن كل ما يجرى وما يحيط به . رغم كل ما مر به الطاهر من تطورات وأحداث فانه لم يتغير ، اذ بقى على حاله (ص 96) ونراه عندما يعود الى قريته ليستقر فيها لا تختلف ممارساته كثيرا عن ممارسات أبيه .

ثم نأتى الى شخصية « عائشه » ، الشخصية التى سميت الرواية باسمها . اسم « عائشه » لم يذكر الا فى الصفحة 97 ، أكثر من نصف الرواية خصص لغير « عائشه » لكنه فى الحقيقة مهد لظهورها ـ ان صح

التعبير - ، كل الظروف التى عاشها الطاهر سوف تؤثر على « عـائشه » ، « عـائشه » خلقت فى القصر وكانت أمل الجميع ولكنها بعد ذلك توالت عليها الصدمات وكانت الاولى خروجها من القصر وانتقالها الى بيت ضيق يتكون من غرفتين ، ثم زواج أبيها مرة ثانية ، ثم انتقالها من تونس نهـائيا الى قـرية أبيها وسجن أخيها الناصر . إذ أن هذه الشخصية منذ صغرها اعتادت على العيش بدون أمل ، اذ أنها لم تجد أمامها الا النفاق والخداع والخيانة فى شتى أنواعها . شاهدت انغماس والدها فى الملذات ، رأت بـأم عينيهـا خالتهـا (زوجة أبيها) وهى تخون زوجها ، كـل هـذه الظـروف افقدتهـا تـوازن الشخصية وأقامت علاقة مع سالم (ربيب أبيها) انتهت الى مأساة اذ أنـه افتض بكارتها (ص 151) وسط مجتمع لا يرحم مثل هذه الاخطاء .

تتزوج « عائشه » رغما عنها من ضابط تونسى فى الجيش الفرنسى كانت تأمل منه أن يغفر سيئتها ولكنه على عكس ما توقعت فتكون ضربة أخيرة لها فتفقد عقلها وتنغمس كلية فى اللذة بعد زواجها الثانى . وهـذه الشخصيـة الغريبة العجيبة التى أرادها البشير بن سلامه أن تكون حاملة لافكاره حول المرأة ، المرأة الضحية للمجتمع ابتداء من أبيها الذى كانت ترافقه الى المسرح والسنما ، وحياة الفساد التى كان ينغمس فيها داخل البيت وخارجه ، ولعل البشير بن سلامه أراد أن يقول لنا إن الطفل أول ما يتأثر بأسـرته وأبيـه خاصة فالاب الصالح يربى أولادا صالحين واذا كان فاسدا يخلف لنا نسـلا فاسدا . فشخصية « عائشه » حملت الكثير من أفكار المؤلف الذى يناقض نفسه فى العديد من المواضع ، أحيانا نراه لبراليا فى نظرته الى المرأة ، وتارة أخرى نراه محافظا ، مرة نراه نواسيا (نسبة الى أبى نواس) فى نظرته الى المرأة ديدنه المادة والمادة وحدها ، وأخرى نراه متأثرا بالاسلام وتعاليمه ونظرته الى المرأة خاصة فى آخر الرواية . ونستطيع أن نتساءل عن رؤية البشير بن سلامه الحقيقية للمرأة ؟ ولعلنا نستنتج أن البشير بن سلامة حاول أن يتخلص من نظرته التقليدية للمرأة ولكنه فى النهاية - لاشعوريـا - عـاد ليعطينـا تصوره عن المرأة وكيف ينبغى عليها أن تكـون من التـدين والتعفـف حتى تستطيع أن تضمن مكانة سليمة فى المجتمع وبالتالى تكون امـرأة صالحـة لاولادها والمجتمع . وعلى هذا الاساس جعل « عـائشه » عـاقرا اذ انـه لم يشأ ان تترك لنا نسلا غير صالح وبالتالى كانت شخصية « عائشه» صفراء ، شاحبة ، غير فاعلة وغير منفعلة فى الوقت نفسه ، فهى عديمة الاحساس ، عديمة الشعور وعديمة التأثر باستثناء تأثرها بالفناء فى اللذة وبذلك أرجعها الى حيوانيتها .

وبعد أن رأينا شخصية « عائشه » تنتقل الى شخصية عادل الذى - بحكم منشئه يمثل النقيض الطبقى للطاهر - ينتسب الى طبقة ارستقراطية ، مثقف ثقافة عالية ، لكنه شاذ من عدة نواح ، الشذوذ الاول هو شذوذه الجنسى الذى يفسر لنا من ناحية تذبذب شخصية عادل واهتزازها وعدم قدرتها على اتخاذ المواقف ، من ناحية أخرى ، اذ أن كل تصرفاته تتصف بالميوعة والانحلال . وكان من الممكن أن يتأثر بالطاهر خاصة عندما أصبح هذا الاخير ندا له من الناحية الثقافية على الاقل وظهرت مؤشرات عند عادل تدل على أنه على استعداد للانسلاخ عن طبقته ومستعد أيضا للاخذ من الطاهر أغلب ما يطرحه من الافكار (ص ص 75 - 78 - 80 - 84) ، كان عادل على أتم الاستعداد لان يقوم مع الطاهر بدور طلائعى فى الحركة الوطنية (ص 85) . ولكن الروائى حكم على هذه الطبقة بعدم القدرة على المشاركة فى معركة التحرير ولا يمكن لها أن تتخلى عن حلفها المقدس مع الاستعمار ولذلك لم نلاحظ عليهما أية بادرة للتفاهم بل بالعكس نراهما فى العديد من المواقف يتصادمان ويتهم عادل الطاهر بالوصولية (ص ص 83 - 84) . فبقيت مبادرات عادل مبادرات فردية تجره حتما الى الفوضوية أو الانكماش (ص 85) لان الطاهر كما رأينا لم يستغل نقاط الضعف عند عادل وعند طبقته . خلق عادل على التواكل وتربى عليه ، خلق على الاعتماد على الغير ولم يعتمد على نفسه أبدا وكانت النتيجة المحتومة وهى ضياعه بعد أن غاب من كان يعتمد عليه وانتهى الى السجون والفقر والانغماس فى اللذات .

ولا غرابة فى ذلك فهو لم يجد مثالا ، ولم يجد من يحاول أن يرشده الى الطريق السوى فكانت نهايته المؤلمة . وهذه الشخصية الثالثة من شخصيات الرواية غير الفاعلة فى الاحداث وغير الصانعة للتاريخ ، ولولا سيطرة المؤلف المطلقة عليها وقراره المسطر لها مسبقا وفرضه عليها أعمالها وتصرفاتها لكانت غير ما كانت عليه ، لو ترك لها شيئا من الحرية ، لو سمح لها بقليل من الحركة ولوأعطاها متنفسا بسيطا لغيرت مجرى أحداث الرواية ولكن المؤلف حكم عيها وما أقسى هذا الحكم !!

أما شخصية زبيده ، الشخصية التى لها علاقة بالشخصيات السابقة الثلاث ، لكن كل علاقة تختلف عن الاخرى : علاقتها مع الطاهر هى علاقة اعجاب ثم حب ثم زواج .

علاقتها مع عادل علاقة نفور أخوة (على نحو ما) ثم علاقة كره وبعدها علاقة جنسية ولذة لم تشعر بها مع غيره ، تلك اللـذة التى لم يستطـع توفيرهـا الطاهر (ص 105) وعلاقتها بـ « عائشه » علاقة أمومة فاترة ، اذ أن عطف الأمومة والحنان الأمومى كانا ينقصانها ، فلم نر ـ على مـر الاحـداث ـ هذا التوادد والتحابب والتصافى بين « عـائشه » وأمها مما جعلها علاقة باردة .

وشخصية زبيده ، المصدومة فى أبيها منذ صغرها ، ربيت فى القصور على النعيم ، صدمات صغرها جعلتها متقبلـة الشخصيـة ، طمـوحة الى درجـة الانانية ، تريد تسلق السلم الاجتماعى بشتى الوسائل ، وهنـا تلتقـى مع الطاهر الذى تزوجته عن قناعة فى مثل هذا الطمـوح (ص 95) . خـانت زوجها فى غيابه لربما لشبق جنسى أو ارضاء لعادل الذى اعتدى عليه الطاهر قبل سفره ، فخشيت أن يغضب « الفريك » ويطرد الطاهر من القصر وبذلك يتبخر أملها فى الوراثة والسيطرة على الثروة لكن الطاهر بانفتـه البـدوية يفاجئها ويقطع عليها الطريق فتسكت والى الابد . وبعد أن صدمت صدمتهـا الثانية انتهت الى الخنوع والقبول . وهذه الشخصية حملت أفكار الكاتب عن المرأة التقليدية الخاضعة بصفة مطلقة الى الرجل وسلطته ، المرأة التى لا حول ولا قوة لها على المعارضة فهى تقبل وتنفذ دون أن تنـاقش . وبـذلك تكون الشخصية الثالثة الباهتة فى الرواية ، سلبية فى جل تصرفاتها ، فكـانت بيدقا من جملة البيادق التى تحرك بارادة الكاتب على رقعة الرواية .

ولكن فى الحقيقة يمكـن أن نقـول : إن بعض الشخصيات الثانوية التى استطاعت أن تفلت من قبضة الروائى كانت تتسم بالحيوية والنشاط وخفة الروح أو على الاقل بحرية الحركة وحرية التعبير عن نفسها (أبى محمـد ، الناصر ، أخت زبيده ...) اذ أن هذه الشخصيات لم تكن حاملة لافكار معينة من أفكار السيد البشير بن سلامه بل استطاعت أن تفلت من فلكه وحصاره المضروب حول شخصياته الرئيسية .

إن بناء الرواية فى مجمله جاء بناء محكما استعمل فيه البشير بن سلامه طريقة « الفلاش باك » اذ أننا عامنا بموت « عـائشه » من الصفحـات الاولى ورويت لنا الاحداث عن طريق على فبناء الرواية ـ كما ذكرت ـ يمتاز بالدقة والاحكام ، فالاحداث تتطور وتتطور بنفس تصاعدى استطـاع البشيـر بن سلامه فى الكثير من المرات أن يسيطر على القارىء شـادا ايـاه بالمفاجـآت والمؤامرات التى تحاك من هنا وهناك واتساق الاحداث جعلنا نتفاعـل مـع

الرواية عند قراءتها باسلوب عربي شيق وبلغة سهلة لا نجد كبير عنـاء في فهمها ، فالحوار جاء خفيفا مركزا ، حيا أضفى على الرواية جوا خاصا جعلنا ونحن نقرؤها لا نشعر بكثير من الملل والقلق والتجأ أحيانا الى « المنلـوغ » لكي يفسر لنا بعض الجوانب الغامضة من الشخصيات الروائية .

لكننا من الناحية الشكلية لاحظنا شيئين : الاول أساء الى الرواية هو ذلك الانقطاع الحاد الذى وجدناه فى الصفحة 108 : « كل هذا لا يمكن فهمه الا عند تبين التدهور الاقتصادى الذى أصاب بعض العائلات التونسية وجعلها تجرى وراء معلـوم الكـراء بعد أن كانت تنعـم فى الخيرات ، **ولكن هذا ليس من شأننا ولنكتف** بمتابعة الطاهر ... » .

وهناك أيضا انقطاع ثان لاحظناه في الصفحة 123 : « ولعلها أخذت كـل ميزاتها الخلقية والخلقية من هذا الطائر (الببغاء) الا زينة ريشه **أو عفوا** هى للبومة أقرب وبها الصق ، **واعذرونى** اذا لم أملك قلمى ... » .

يبدو أن الاستاذ البشير بن سلامه سها عن أن على هو الذى يروى لنـا أحداث الرواية فأحسسنا بتدخل الروائى مباشرة فى سرد الاحداث وهـذا عيب من عيوب العمل الروائى .

والثانى ــ على ما أظن ــ أنه ميزها عن الروايات التونسية ألا وهو شكل الكلمات ونستطيع أن نقول بشىء من الاحتراز : انه عمل ايجابى نظرا لان قراءة اللغة العربية تسهل حين تشكل كلماتها خاصة عد ذوى الثقافة المحدودة وهى كثرة كثيرة فى البلاد التونسية والعربية .

أقول فى الختام دون نزوع الى الجدل إن رواية « عـائشه » بداية والبداية لا بد أن تكون حاملة للعديد من الهفوات والعثرات وعسى أن يتداركها المؤلف فى أعماله القادمة وخاصة أن السيد محسن بن حميده أنبأنا أن الاستاذ بن سلامه يعد أعمالا أخرى للطبع والشىء الذى يستحق التنويه فعلا فهو ابتعاد رواية « عـائشه » وتخلصها من كيل السب والشتم للمستعمر (وأرجو أن يكون ذلك بداية عهد جديد) الذى ملته النفس التونسية والقارىء التونسى الذى يحس بضرورة الحديث عن المشاكل التونسية والتونسية فقط .

د. محمـد عبـازه

وعي الهوية العربية
في الفكر التونسي الحديث

للدكتـور عفيـف البـوني
عرض : محسن بن حميده

صدر عن منشورات العالم العربى كتاب للدكتـور عفيـف البـوني تحت عنوان : « وعي الهوية العربية فى الفكر التونسى الحديث » يثبت فيه الكاتب أن العروبة فى تونس منذ أربعة عشر قرنا حتى اليوم لم تكـن فى العمـق الشعبى أقل رسوخا مما هى فى أى قطر عربى آخر وهذا رغم كل محـاولات طمس الشخصية العربية فى تونس خلال عهد المماليك والعثمانيين وعمليات التغريب والاستلاب فى عهد الفرنسيين ورغم ما تعرضت اليه العـروبة فى تونس من حملات التشكيك والتزييف التى لم تتعرض اليهـا فى كثير من الاحيان فى أقطار أخرى .

ويشمل الكتاب بعد التمهيد والتقديم ومدخل فى مفهوم الأمة ثلاثة فصول :

ـ الفصل الاول فى الجذور التاريخية للهوية العربية فى تونس يتناول لمحة عن تاريخ القطر التونسى منذ الفتح العـربى لافريقيـا فخصـوصية الموقـع والتاريخ فوعى الخصوصية فى الانتاج الفكرى التونسى الحديث .

ـ والفصل الثانى فى الهوية العربية بين التغريب وتاكيد الذات ويتناول الوعى بالانتماء العربى فى الفكر التونسى الحديث فاشكال وعـى الخصوصية التاريخية لتونس فالتغريب والاستلاب الحديث فانعكاس الـوعى بالانتمـاء العربى من خلال الصلة مع المشرق .

ـ والفصل الثالث والاخير فى تطور الوعى القومى العربى بعد الحرب العالمية الثانية ويتناول الوعى العروبى فى تونس ما بين الحربين العالميتين فالوعى القومى العربى فى تونس بعد الحرب العالمية الثانية وتطور الفكر القومى العربى فى تونس بعد تلك الحرب العالمية الثانية .

وخلاصة الكتاب أن عروبة تونس العريقة المتجذرة لا تحتاج الى اثبات أو برهان اذ هى واقع ملموس لا يمكن أن ينكره الا جاهل أوجاحد أو مغرض .

وفى آخر الكتاب بعد المصادر والمراجع وفهرس المحتويات نجد فهرسا هجائيا عاما للاعلام والاقطار والمدن والاماكن والقبائل والحروب والجرائد والمجلات .

وأخيرا ثلاثة خرائط : الاولى لتونس والثانية للوطن العربى والثالثة لحوض البحر المتوسط والامبراطورية العثمانية .

كتاب قيم ثابت يسدى خدمة جليلة لأصالة عروبة تونس خاصة ولدعم وحدة الوطن العربى عامة .

محسن بن حميده

فى الاعداد القادمة نقرأ

دراسة : الشاذلى الساكر ....موجة النقد الادبى الجديد بفرنسا

قصة : محمود بلعيد ....الدراجة الصفراء

قصيد : سامح درويش ....جاء الشتاء

قراءات سريعة

● فهرس ابن عطية :

صدرت عن دار الغرب الاسلامى ببيروت الطبعة الثانية (مزيدة ومنقحة) لكتاب « **فهرس ابن عطية** » للامام القاضى أبى محمد عبد الحق بن عطية المحاربى الاندلسى بتحقيق الاستاذين محمد أبو الاجفان ومحمد الزاهى ولقد سبق لنا أن أشرنا الى صدور الطبعة الاولى من هذا الكتاب .

● موطأ الامام مالك :

صدر أيضا « **موطأ الامام مالك** » برواية ابن زياد بتقديم وتحقيق الشيخ محمد الشاذلى النيفر وهو مطبوع على نفقة أمير دولة قطر سمو الامير الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى .

والكتاب قطعة فقط من موطأ الامام مالك بن أنس مسبوقة بدراسة مديدة عن ابن زياد وموطئه (105 صفحة) ومتبوع بمعجم للاعلام (26 صفحة) وبفهارس فى 22 صفحة وقائمة مراجع (7 صفحات) ومع العلم أن المذهب المالكى ابتدأ بالمدينة المنورة على يد صاحبه مالك بن أنس رضى الله عنه ثم منها انتشر فى سائر البلاد الاسلامية فان موطأ ابن زياد هو أول التآليف فى الاسلام ثم أول تأليف ظهر بافريقيا وأول رواية لموطأ الامام مالك ظهرت على وجه الارض .

والجدير بالذكر أيضا أن ابن زياد من المجتهدين اذ يخالف مالكا أحيانا فى أحكامه اعتمادا على رأى الجماعة اذا خالف هذا رأى مالك .

● موجز الدفاتر العربية التركية بالجزائر :

كتاب صدر للدكتور عبد الجليل التميمى هذه السنة 1983 كباكورة للمعهد الاعلى للتوثيق .

والكتاب ـ لما تقدمه هذه الدفاتر من ضخامة المعلومات المختلفة المتنوعة الضرورية وعظيم قيمتها لدراسة ادارة العثمانيين بالجزائر ـ هام جدا بالنسبة للمؤرخين والباحثين .

● **صيانة المدينة :**

بعدد ديسمبر 1982 لمجلة المجلس الدولى للمبانى والمعالم الاكوموس ICOMOS دراسة عن «العمليات المدمجة لاعادة الهيكلية العمرانية لمدينة تونس » بقلم : عبد العزيز الدولاتلى بالاشتراك مع جميلة بنوس ودنى لساج .

دراسة مفيدة مرفقة باقتراحات عملية جدية يجدر الاخذ بها اذا قصدت الصيانة الحق لمدينة تونس .

● **المجلة التاريخية المغربية :**

صدر العدد 27 ـ 28 من **المجلة التاريخية المغربية** (ديسمبر 1982) زاخرا كعادته بالبحوث والوثائق الخاصة بالتاريخ المغربى قديما وحديثا والمجلة كعادتها تنقسم الى قسمين : عربى (390 صفحة) وأعجمى فرنسى وانقليزى (400 صفحة) .

● **تاريخ شمال افريقيا المعاصر :**

صدر باللغة اليابانية للكاتب اليابانى مياجى كازوو MIYAJI KAZNO كتاب تحت عنوان : « **تاريخ شمال افريقيا المعاصر** » يحتوى على مقدمة تتناول عناصر الاوضاع الطبيعية والبشرية وعلى ستة فصول : الاول فى تكون الامم المغربية ، والثانى فى التعصير والاستعمار ، والثالث فى التحولات الاجتماعية والحركات القومية ما بين الحربين ، والرابع فى سبيل الاستقلال ، والخامس فى انهاء الاستعمار والاشتراكية ، والسادس فى منزلة المغرب فى العالم .

والكتاب محلى بصور وخرائط وفى آخره ملحقات أهمها فهرس للاعلام والاحداث وببلوغرافيا .

● **النغم الحنون :**

كتاب جميل دسم أعدته السيدة القايد عن صديقها المغفور له محمد الجموسى للتعريف به رجلا وصديقا وفنانا رفع فن الموسيقى والغناء الى مستوى عال من الاخلاقية والجمالية والشاعرية وخدم باشعاعه الكبير وعطائه الغزير وطنه تونس فى الداخل والخارج .

كتيب يجب ان يطلع عليه كل فنان وكل تونسي عامة في انتظار كتاب « مذكرات الجموسي » الذي تعده وستبرزه قريبا ـ إن شاء الله ـ السيدة القايد أيضا .

● **ملصقات على جدار الذاكرة :**

هو العدد 26 من سلسلة «الاخلاء» وهي مجموعة شعرية للشاعر حميده الصولي تحتوي على ثلاث مطولات شعرية تشرح الوضع العربي بما فيه من تناقضات وتعقيدات ومخزيات وتوجه الاتهام في صراحة وجرأة : « **ان المآسي رغم اختلاف أزمنة الحمل تضع جنينا واحدا يحمل عنفها متجمعة ... هذا الجنين اصطلح على تسميته بالثورة**» .

والمجموعة تحمل عنوان المطولة الاولى « معلقات على جدار الذاكرة » بينما عنوان الثانية هو «أزهار الحلم» والثالثة عنوانها «معزوفة صامتة في موائد أكل الشواء » .

● **جراح البحر للدكتور عبده يماني :**

صدر للاستاذ محمد عبده يماني وزير الاعلام للمملكة العربية السعودية مجموعة قصصية سعودية هي المجموعة الثانية بعد مجموعته الاولى « اليد السفلى » . والمجموعة الحالية تشمل خمس قصص أخيرتها قصة «**جراح البحر**» التي تحمل المجموعة عنوانها وكلها قصص من الواقع العربي السعودي بمظاهر سماته الخاصة وهو لا يزال في جله يعيش حياة الاسلام الاولى لكن بمشاكل انفتاحه على العالم واصطدامه بتحديات العصر وتطوره الضروري في شتى الميادين .

وبالمناسبة نذكر أن الاستاذ عبده يماني له رواية بعنوان « فتاة من حائل » وكتب أخرى في العاوم منها : الاطباق الطائرة حقيقة أم خيال ؟ ونظريات علمية حول غزو الفضاء والجيولوجيا الاقتصادية .

● **الصحافة والاذاعة والتلفزة :**

عن الدار التونسية للنشر صدر كتاب « **الصحافة والاذاعة والتلفزة في تونس** » لفتحي الهويدي ورضا النجار ـ كتاب قيم وشامل لكل ما يجب أن يعلمه القارىء عن الصحافة التونسية منذ 1875 الى 1975 وعن الاذاعة والتلفزة منذ نشأتيهما .

والملاحظ أن هذا الكتاب باللغة الفرنسية ، حبذا لو ترجم الى اللغة الأم .

محسن بن حميده

أضواء الفكر

● **أسبوع ثقافي تونسي في المغرب الاقصى**

تحول يوم الاحد 83/3/13 وفد ثقافي تونسي برئاسة الاستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية الى المغرب الاقصى حيث تقيم الجمهورية التونسية اسبوعا ثقافيا تونسيا بالمملكة المغربية يشمل جملة من التظاهرات الفنية والفكرية والابداعية يندرج هذا الاسبوع في نطاق دعم العمل الثقافي بين البلدين وتوطيدا لعرى الصداقة القائمة بين الشعبين الشقيقين .

ويأتي هذا الاسبوع الثقافي في نطاق تنفيذ برنامج التعاون المبرم بين المملكة المغربية والجمهورية التونسية لسنتي 83/82 في نطاق توطيد العلاقات الثقافية الودية في المغرب وتونس واخيرا للتعريف بما جد من انتاجات ثقافية واعمال ابداعية في الحقل الثقافي التونسي واذا انطلقنا من ان الاسبوع الثقافي التونسي بالمغرب فرصة لتوطيد العلاقات الثقافية من ناحية وللتعريف بالانتاج التونسي من ناحية اخرى فيتعين على البرنامج ان يعكس هذه الاهداف المتحدث عنها .

وكان البرنامج متكامل الاطراف يحتوي على تظاهرات تغطي مختلف الانشطة الثقافية بتونس .

فبالنسبة للمعارض اختارت الوزارة أن تكون التظاهرة الخاصة بالتعريف بالفنون التشكيلية في تونس تتعلق بالمنسوجات الحائطية بشكل جديد كان الفنان محمد نجاح ممثلا بانتاجه «المنسوجات الحائطية» وهي تجربة جديدة أقدمت عليها الوزارة لتقدم انتاج فنان تشكيلي علما بانها قدمت في السابق وفي مناسبتين سنة 1975 و 1979 اعمال مجموعات تشكيلية غطت خلال هذين المعرضين كل النزعات والمدارس التشكيلية التونسية .

وهنالك معرض للكتاب التونسي في الرباط ومعرض للمجلات والنشريات ذات الصبغة الثقافية والعلمية والتربوية .

اما بالنسبة للمسرح فقامت الفرقة المسرحية القارة بمدينة سوسة بتقديم عروض لمسرحية (قمرية) التى فازت بالجائزة الاولى فى اسبوع المسرح الاخير

وفى الميدان الموسيقى والفنون الشعبية كونت مجموعة تتألف من عناصر الفرقة القومية للفنون الشعبية واخرى من العازفين الشبان مع مساهمة مطربين شبان مثل شكرى بوزيان وليليا الدهمانى للتعريف بما يجد من ابداع فى هذا الميدان فى نطاق الطاقات الشابة ، وقدمت هذه المجموعة برنامجا واحدا فى عديد من المدن المغربية مثل الرباط والدار البيضاء ومراكش ٠

يشمل الاسبوع الثقافى عروضا سنمائية منها : شريط (ظل الارض) للطيب الوحيشى و(عزيزة) لعبد اللطيف بن عمار اضافة الى مجموعة من الافلام الوثائقية القصيرة ٠

كما شمل الاسبوع الثقافى عروضا سنمائية منها : شريط (ظل الارض) ماجد عن الشابى تدخل هذه المحاضرة فى برنامج الاحتفال بخمسينية الشابى وثانية للدكتور نور الدين صمود عن الشعر التونسى الحديث وتلت كلا المحاضرتين امسية شعرية تقدم فيها نماذج من اشعار جعفر ماجد ونور الدين صمود ٠

ويتراس الوفد الثقافى المشارك فى الاسبوع المتحدث عنه الاستاذ البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية تلبية للدعوة التى وجهها له زميله الدكتور سعيد بن البشير وزير الشؤون الثقافية فى المملكة المغربية وكانت للاستاذ البشير بن سلامة محادثات مع زميله المغربى حول تطوير اساليب وطرق التبادل الثقافى بين البلدين خاصة المسائل المتعلقة بالانتاج المشترك فى ميدانى النشر والسنما .

● على هامش الاسبوع الثقافى التونسى فى المغرب :

اكد السيد البشير بن سلامة وزير الشؤون الثقافية بمناسبة الاسبوع الثقافى التونسى فى المغرب الممتد من يوم الاثنين 83/3/13 الى نهاية الاسبوع: ان الاسابيع الثقافية صورة من صور التعريف بالثقافتين المغربية والتونسية فى مظاهر متعددة ٠

واشار الوزير فى حديث ادلى به لصحيفة الانباء المغربية الى الروابط القائمة بين الشعبين المغربى والتونسى اللذين لهما نفس الثقافة ونفس الحضارة وكذلك العلاقات المتينة القائمة بين البلدين مبرزا ان الاسابيع الثقافية ما هى الا صورة من هذه الروابط التى نامل ان تكون منطلقا لايجاد نسيج دائم بين البلدين فيما يخص العمل الثقافى ٠

واكد فى هذا الصدد على ضرورة ان يكون الكتاب التونسى حاضرا فى المغرب والعكس بالعكس ونفس الشىء بالنسبة للسنما والمسرح والموسيقى بحيث يصبح التعامل الثقافى يوميا لا يستوجب الامور الرسمية ويصبح بالتالى متداولا وعفويا ٠ وقال : ان هذه الغاية التى نرومها يجب ان تسود علاقة بلدين مثل المغرب وتونس اللذين تربط بينهما جملة من الاواصر وسياسة واحدة فى عدة مجالات ٠

واعلن السيد البشير بن سلامة ان هناك اتفاقيات ثنائية بين المغرب وتونس لاقامة أسابيع ثقافية مشتركة معربا عن أمله فى أن تتجاوز هذه الاتفاقيات الاسابيع الثقافية الى حل مشاكل معينة اقتصادية ومالية وسياسية حتى يصبح التبادل الثقافى من العمل اليومى الطبيعى ٠

وقال الوزير انه عكف مع الدكتور سعيد بن البشير وزير الشؤون الثقافية المغربى على حل المشاكل المتعلقة بالتبادل فى المواد الثقافية عندما افتتحا اشغال اعمال الخبراء الذين انكبوا على هذه المسائل واعرب عن ارتياحه لما وجده لدى الجانب المغربى ولا سيما فى نظيره المغربى من تجاوب لجعل هذه الاسابيع منطلقا باعتبار ان الثقافة لا تزدهر الا بازدهار الصناعات الثقافية من طباعة وصناعة وسنما وكذلك الوسائل السمعية والبصرية .

وبخصوص وضع الفكر العربى حاليا أوضح السيد البشير بن سلامة ان الفكر العربى بمختلف أوجه نشاطه لم يوجد حلا للمشاكل العربية مضيفا ان الازمة الفكرية التى ظهرت فى الميدان الاقتصادى وفى الميدان السياسى وفى الميدان الاجتماعى فى الدول العربية وخاصة فى قضية فلسطين انما هى من نسيج ازمة الفكر العربى وعبر عن اعتقاده بان العرب لو كان لهم فكر اقتصادى وفكر سياسى وادبى وثقافى بصورة عامة يبلغ صوته الى العالم بقوة ويجلب الجماهير والطاقات الموجودة فى العالم لما وجد نفسه وحيدا فى هذا الخضم وفى هذه المأساة التى يعيشها العرب اليوم والمتجسمة فى قضية فلسطين ٠

واكد السيد البشير بن سلامة حرص وزراء الثقافة العرب على ازدهار الثقافة بكامل اوجهها وحل كل المشاكل التى تعرضت اليها مما يمكن الثقافة العربية فى ميادينها المتعددة من بلوغ الغاية .

وعما اذا كانت هناك استراتيجية لتطويق هذه الازمة اوضح الوزير ان فى اجتماعات وزراء الثقافة العرب ودراستهم لعدة قضايا ثقافية بجوانبها السياسية والاقتصادية ما يوصلنا الى هذه الاستراتيجية مشيرا الى ان الاستراتيجية فى الواقع هى احكام الوسائل فى تبليغ الثقافة وفى تذليل الصعاب .

واكد فى الختام ان الثقافة الحقيقية هى التى تعمل على ربط الصلة والتعاون وتثقيف الفكر وصقله .

● **ملتقى ابن أبـى الضياف بسليانـة :**

انتظم بداية من يوم 25 مارس 1983 وعلى امتداد ثلاثة ايام بسليانة ملتقى ابن ابى الضياف فى دورته الثالثة حول المجتمع التونسى فى القرن التاسع عشر .

وقد اشرف الاستاذ البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية على افتتاح هذا الملتقى والقى كلمة تحدث فيها عن الدور الذى يجب ان تلعبه الثقافة فى تطوير المجتمع التونسى .

● **مهرجان الاغنية التونسية :**

نظم بدار الثقافة ابن رشيق بداية من يوم 25 مارس 1983 مهرجان الاغنية التونسية .

وكان الحفل الافتتاحى مع فرقة الرشيدية للموسيقى .

● **أربعينية المرحوم حسن الزمرلـــى :**

تحت إشراف وزارة الشؤون الثقافية انتظم بدار الثقافة ابـن خلدون فـى السادسة من بعد ظهر يوم الاثنين 21 مارس 83 اربعينية فقيد المسرح التونسى المرحوم حسن الزمرلى بمشاركة السادة ابو القاسم محمد كـرو ـ المنصـف شرف الدين ـ يحى محمد ـ نور الدين صمود ـ محمد بن يوسف ـ توفيـق بوغدير ـ عبد الرؤوف الخنيسى ـ عبد الله بوبكر .

وقد أشرف على هذه الاربعينية الاستاذ البشير بن سلامه وزير الشؤون الثقافية .

● الايام المسرحيــــة :

انطلقت يوم 83/3/22 فى السادسة والنصف مساء بدار الثقافة ابن خلدون الايام المسرحية التى تتواصل الى يوم 26 مارس 1983 وهى تشتمل على أربعة محاور تتعلق كلها بالمسرح التونسى :

ـ النص ـ والاخراج ـ والنقد ـ والهيكلة المسرحية ·

وضمن هذه المحاور بــرزت عدة تدخلات قام بهـا عدد من رجـال المسرح والمهتمين بالفن الرابع فى تونس واشتمل على تدخلين الاول لتوفيـق الجبالى بعنوان التأليف الجماعى فى المسرح التونسى والثانى لمحمد المديونى حـول النص والتراث ·

وقد خصص يومى الاربعاء والخميس للاخراج ويوم الجمعة للنقد المسرحى اما اليوم الاخير وهو يوم السبت فهو خاص بالهيكلة المسرحية ·

● ندوة القصة العربية :

تعقد هذه الايام فى المغرب ندوة حول القصة العربية ينظمها اتحاد الكتاب فى المغرب الذى وجه الدعوة الى عدد كبير من الادباء والكتاب العرب ·

وقد سافر مؤخرا الى المغرب بغرض المشاركة فى الندوة الاديب التونسى محمود التونسى ممثلا لاتحاد الكتاب التونسيين وكذلك الدكتور توفيق بكار بصفة شخصية كما سافر الى المغرب ايضا الاديب العراقى عبد الرحمان مجيد الربيعى الذى قدم بحثـا بعنوان « تجربتى فـى كتابة مجموعتى القصصيـة الاولى : السيف والسفينة» ·

● مشروع ترجمة الشعر العربى المعاصـــــر :

اجتمعت يومى 15 و 16 مارس 1983 بمقر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اللجنة التحضيرية المكلفة بالاعداد لتنفيذ مشروع تـرجمة الشعـر العربى المعاصر والمؤلفة من الناقدين الادبيين : الدكتـور احسـان عبـادى والاستاذ خليفة التليسى ، والمترجمين : الدكتور عدنان حيدر الذى سيتولى الترجمة الى اللغة الانكليزية والاستاذ توفيق بكار الذى سيتولى الترجمة الى اللغة الفرنسية · وحضر الاجتماعات من جانب المنظمة الدكتور صالح خرفى ،

والاستاذ شحادة الخوري خبير وحدة الترجمة والاستاذة ريتا عوض المسؤولة عن هذا المشروع فى ادارة الثقافة ·

وقد قدم الى اللجنة فى اجتماعها الاول مشروع جـدول اعمـال أقـر على الصيغة التالية :

- الفترة الزمنية التى سيغطيها الكتاب ·
- تحديد معايير الاختيار ·
- اختيار الشعراء الذين ستنتخب قصائد من نتاجهم للترجمة ·
- اقتراح القصائد التى ستترجم اذا امكن ·
- مقدمة الكتاب ومن سيقوم بوضعها ·
- اسلوب عمل المترجمين والمحررين ·
- حجم الكتاب وتقسيمه ·
- ميزانية المشروع وتفصيل بنودها ·
- الفترة الزمنية اللازمة لانجاز الترجمة ·
- نشر الكتاب ·

وناقش المجتمعون بنود جدول الاعمال واكدوا اهمية الاحتكام الى الجودة الفنية فى عملية اختيار القصائد مع مراعاة ضرورة كونها لافتة لنظر القارىء الغربى ومستساغة لديه · واتفقوا على الاتجاه الى اختيار قصائد تصور هموم الانسان العربى المعاصر التى يمكن للمثقف الغربى غير المتخصص التجاوب معها ·

وقد توصل المجتمعون الى الاتفاق على الامور التالية :

موصفات الكتاب : يحدد عنوان الكتاب بـ (مختارات من الشعر العربـى المعاصـــــر) .

الاسماء المقترحة للشعراء : اقترحت اللجنة أسماء عدد من الشعراء الذين يمكن أن تختار قصائد من نتاجهم للترجمة ورأت أن يكون الاختيار النهائى للمترجم نفسه لكنها حرصت على أن يتعاون أعضـاؤها جميعـا فى انتخاب بعض المقاطع الشعرية من كل شاعر وتبادل هذه المقاطع المختارة حتـى لا يكون الاختيار خاضعا للذوق الفردى .

● فى سنــة جبــران :

ضمن سلسلة نشاطات النادى الثقافى العربى ببيروت حول السنة العالمية لجبران خليل جبران ينظم النادى مجموعة من المحاضرات حسب البرنامج التالى:

- يوم 18 مارس 1983 : المنحى الرمزى فى أدب جبــران للدكتــور يمس الايوبـــى .

- يوم 25 مارس 1983 : القصــص الجبــرانى فى الميــدان البسيكلــوجى للدكتور غازى براكس .

- يوم 1 أفريل 1983 : جبران والتصوف للدكتورة سعاد الحكيم .

- يوم 8 أفريل 1983 : جبران ومصطفى الرافعــى دراسة مقارنة للدكتور مصطفــى الجــوزو .

- يوم 15 افريل 1983 : المرأة فــى حياة جبران للدكتور كريستونجم ؛
- يوم 22 أفريل 1983 جبران واللغة العربية للدكتور عفيف دمشقيه .
- يوم 29 أفريل 1983 رواسب الادب الجبرانى للدكتور مترى بولس .
- يوم 6 ماى 1983 : جبران بين الواقعية والرمانسية للدكتور فكتور اليك
- يوم 13 ماى 1983 : جبران والاصلاح للدكتور معن زياده .

● اجتماع الهيئة التأسيسية للموسوعة العربية الكبرى :

بمناسبة انعقاد اجتماع الهيئة التأسيسية للموسوعة العــربية الكبرى ، أدلى السيد المدير العام بتصريح صحفى ذكر فيه بيــان الاجتماع التأسيسى للموسوعة العربيــة الكبرى جاء تنفيذا لتوصية مؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية فى البلاد العربية المنعقد فى بغداد من 2 الى 5 نوفمبر 1981 وكذلك تنفيذا لقرار المؤتمر العام للمنظمة المنعقد فى دورته العادية السادسة المنعقد بتونس مــن 21 الــى 26 ديسمبــر 1981 وقد حــدد لاجتماع الهيئــة التأسيسية للموسوعة اقتراح الخطوات العلمية للبــدء فى تنفيــذ مشــروع الموسوعة الذى هو احدى الركائز الاساسية لاستراتيجية الثقــافة العربية ، ودراسة امكانية واسلوب ووسائل ضم الجهود التى بذلت وتبذل فى مشروع الموسوعة العربية الكبرى بما يحقق الاستفادة من الجهود التى بذلت ويمنــع التكرار والازدواجية .

● اللغــة العــربية فى كينيــا :

تباحث السيد الدكتور محيــى الدين صابر المدير العــام للمنظمة العربيــة للتربيــة والثقافــة والعلوم مع السيد أحمــد عبد اللــه مديــر عــام المجلس الاسلامى الاعلى لمسلمى كينيا الذى يزور المنظمة بدعوة من السيد المدير العام لمناقشة آفاق التعاون فى مجال اللغة العربية والثقافة والحضارة الاسلاميتين فى شرق افريقيا عامة وفى كينيا خاصة .

وتأتى هذه الدعوة فى اطار التعــاون القــائم بين المؤسســات الافــريقية والشخصيات الثقافية الافريقية وجهاز التعاون الدولى التابع للمنظمة .

والجدير بالذكر انه تم فى الآونة الاخيرة توجيه رئاسى بالعنــاية باللغــة العربية فى كينيا وادخالها فى صلب المناهج التربوية فى الابتدائى والثانوى ، ولقد سبق للمنظمة ان ارسلت وفدا على مستوى عال لاجراء مسح ثقافى عام عن أوضاع اللغة والثقافة الاسلامية والمؤسسات التعليمية والهيئات والمنظمات العاملة فى هذا المجال فى كينيا وحددت آفاقا للعمل ومشروعات متعددة تعالج التعاون التربوى والثقافى والعون الفني .

● ممثــل تــونس لــدى اليونسكــو :

فى باريس ، تم انتخاب ممثل الجمهورية التونسية لدى اليونسكو السيــد عز الدين قلوز رئيسا للمجموعة العربية لدى اليونسكو لسنــة 1983 وذلــك خلفا للسيد عبد القادر الاطرش .

وقد انتخب الاستاذ أحمد الدراجى مندوب المنظمة الدائم لدى اليونسكــو أمينا عاما للمجموعة .

● السياســات والاهــداف التــربوية :

نشرت مجلة التربية الصادرة فى دولة قطر فى عددها الاخير العدد السابع والخميسين : (فيفرى 1983) تحقيقا حول ندوة السيسات والاهداف التربوية التى عقدتها المنظمة مؤخرا فى الدوحة .

● بين الاغتــراب والتبعيــة :

الثقافة العربية بين الاغتراب والتبعية ، ذلك هو عنــوان الــدراسة التى اعدتها ادارة الاعلام بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لتقدم فى الندوة الفكرية التى يعقدها من 21 الى 24 أفريل اتحاد الناشرين العرب فى طرابلس لبحث موقف دور النشر من قضايا التحرر والوحــدة والافكــار الصهيــونية وستقام هذه الندوة الى جانب معرض يقوم به اتحاد الناشرين فى طرابلس .

● **أيام مسرحية بالمراكز المنجمية :**

قدمت فرقة مسرح الجنوب بقفصة بداية من يوم 18 مارس 1983 الى نهاية شهر مارس 1983 أيام مسرحية بالمراكز المنجمية : المتلوى ، الرديف ، أم العرائس والمظيلة ومدينة قفصة بالمعاهد الثانوية وقاعات العروض للعموم والتلامذة عرضا مسرحيا لمسرحية « الشابى » تأليف البشير القهواجى واخراج عبد القادر مقداد مدير الفرقة وهى مسرحية شعرية نثرية تجمع بين الدارجة واللغة العربية .

● **ندوة شعرية مع أحمد عبد المعطى حجازى**

انتظمت يوم 1983/3/22 بدار ابن رشيق ندوة شعرية مع الشاعر المصرى أحمد عبد المعطى حجازى .

كما أشرف يوم 83/3/23 على ندوة شعرية اخرى بدار الثقافة ابن رشيق بتونس أثناءها قصائد من انتاجه وأجاب عن مناقشات الجمهور . وأسرة الفكر ترحب بالشاعر أحمد عبد المعطى حجازى وتتمنى له اقامة طيبة بربوعنا .

● **ثلاث مجلات للشعر :**

فى ركن ثقافة وآداب من جريدة الشرق الاوسط نشر الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى بتاريخ : 83/2/22 تحت عنوان «ثلاث مجلات للشعر» ما يلى :

مصادفة وكأنها اتفاق ، وهى فى كل الاحوال لا تخلو من دلالات ، تلك هى الاعلانات المتوالية عن اصدار مجلات للشعر بلغ عددها ثلاثا حتى الآن . الاولى مجلة الشعر التى صدرت فعلا عن وزارة الشؤون الثقافية فى تونس ، والثانية التى وعد وزير الثقافة المصرى خلال مهرجان حافظ وشوقى باعادة اصدارها وصدرت اخيرا باسم «الابداع العربى» والاخيرة هى مجلة «شعر» التى كان يصدرها يوسف الخال فى بيروت ، ثم توقفت عام 1970 حتى اعلن اخيرا انها ستعود للصدور .

ولا شك ان هناك مقاصد مختلفة من اصدار هذه المجلات الثلاث ، فاذا كان صدور المجلة التونسية دليلا على يقظة الثقافة العربية ونموها فى بلاد المغرب العربى بعد كبت طويل ومزاحمة قاسية من الثقافة الفرنسية اضافة الى سعى تونس لتدعيم الدور العربى الذى تلعبه منذ سنوات ، فاصدار المجلة المصرية دليل على رغبة مصر فى استرداد مثقفيها الموزعين فى الخارج ، كما هو دليل على رغبتها فى استرداد دورها العربى فى الثقافة كما فى السياسة فى حين ان عودة مجلة يوسف الخال تكشف عن رغبة فى استثمار الدعاية الواسعة التى اتيحت لهذه المجلة فى السنوات الماضية نتيجة لتراجع الاتجاهات الوحدوية

الطليعية فى الثقافة العربية ، هذه الاتجاهات التى كانت على طرفى نقيض مع جماعة «شعر» ذات الاتجاهات اللبنانية والمتوسطية . كما تكشف عودة «شعر» ايضا عن محاولة لاحياء الثقافة اللبنانية بمعناها المتميز واعادتها الى الوضع الذى كانت عليه قبل السبعينات ، وليت هذا الحلم يتحقق فبيروت الخمسينات والستينات لم تكن لجماعة «شعر» وحدها بل كانت لكل حركات التجديد فى الثقافة العربية المعاصرة .

ان التوجه العربى فى المجلة التونسية التى وصلنى العدد الاول منها واضح تمام الوضوح ، سواء فى اختيار القائمين على تحريرها او فى مادة العددين من القصائد والمقالات التى شارك فيها الى جانب الشعراء والكتاب التونسيين زملاء لهم من الجزائر ومصر والسودان وسوريا والعراق .

وهذا التوجه ذاته واضح كذلك فى المجلة المصرية التى يرأس تحريرها الدكتور عبد القادر القط والتى تقرر ان تتسع صفحاتها للشعر وغيره من فنون الكتابة .

وانا هنا اتحدث عن التوجه العربى من حيث هو اطار عام يتمثل فى احترام الفصحى وفى اعتبار الوطن العربى كله مجالا للابداع والقراءة ، دون ان اتعرض لمضمون هذا الاطار او للقيمة الفنية للمواد المنشورة ، لان هذا يستدعى الانتظار حتى تستكمل المجلات الجديدة استعدادها وتحتل بتوالى الصدور حيزها المقدر لها والذى ستحدده نوعية كتابها وقرائها . والا فهناك اكثر من توجه عربى واحد ، ونحن ننتظر شعرا عربيا طليعيا بمعنى الكلمة .

الامر يختلف بالنسبة لمجلة «شعر» التى نعرفها حق المعرفة فقد ظلت تصدر بضعة عشر عاما وتكونت من حولها جماعة من الشعراء والنقاد لهم انتاج معروف ومواقف مشتركة او متقاربة من قضايا الفن وقضايا المجتمع ، ولهم بالتالى تصورهم الخاص لرسالة المجلة التى تتلخص فى الدعوة الى التجديد او الحداثة باعتبارها قطيعة كاملة مع اللغة الادبية الموروثة واحيانا مع اللغة الفصحى على الاطلاق ، ومن هنا اختصت مجلة «شعر» بتبنى قصيدة النثر وشعر العامية متخذة من التاريخ الثقافى الاوربى دليلا يكاد يكون وحيدا للقياس والاحتكام .

لكن وجود مقاصد مختلفة لهذه المجلات الثلاث ينفى وجود دلالات مشتركة للاعلان فى وقت واحد تقريبا عن اصدارها وأسئلة مشتركة علينا جميعا ان نجيب عنها ....